مها محمد الفيصل

سفينة وأميرة الظلال

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

سفينة وأميرة الظلال/ رواية
مها محمد الفيصل / مؤلفة من السعودية
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠ – ١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف :
محمد علي عبد الجواد

الطباعة والتجليد :
المطابع المركزيّة ، عمّان ، الأردنّ

ISBN 9953-36-073-1

سفينة وأميرة الظلال

مها محمد الفيصل

سفينة وأميرة الظلال

رواية

بسم الله

سهل وأميرة الظلال

وجدتها تجلس على بساط ممتد ما رأت عيني قط ، أحسن من هذا البساط ، وأجمل من تلك الفتاة .

كان البساط مختلف الألوان ، دائم التجدد ، فلا يصيبك ملل من طول تأمله ، ولا من تأمل تلك الفتاة والنظر إليها ، لغرابة البساط ، ولتمام حسن الفتاة . . . ولملاحة في عينيها .

لكن ، ما شدني أكثر كان وشمة حزن معلقة كنجمة متلألئة بين العين والوجنة .

دمعة . . . دمعة تشع نورا وكأنها من الجوهر .

تعجبت لتلك الدمعة أقصى العجب ! وكأنه لم يكن فيما رأيت من حالها وحال هذه المدينة أعجب من تلك الدمعة ، فعلى الرغم من صغرها قلت في نفسي : إن هذه الدمعة هي

المفتاح الذي سيكشف لي عن أسرار هذا المكان الفاتن بمن فيه وما فيه .

خطوت نحو تلك الفتاة الساكنة الصامتة ، وقد أنساني شدة العجب أن أحييها بما هو لائق ، لعلو مقامها وبهاء مكانها .

أقبلت عليها وسألتها عن دمعتها المعلقة :

ـ لم لم تسقط؟

فقالت دون تردد ، ودون أن تحرك أكثر من مبسمها الذي سحر دون ابتسام :

ـ لأني أريد . . .

تعجبت لجوابها أكثر من عجبي من دمعتها تلك ، فقد بدا لي من حالها أنها رفيعة المكانة عزيزة القدر ، فكيف لمثلها أن تريد!؟

قلت لها في الحال :

- يا سيدتي ، وما عسى مثلك تريد؟

كان صوتها أقرب إلى نغم هادئ ، يُسمع وكأنه يأتي من بعيد ، ومع ذلك فقد أحاط هذا المكان الجليل الفارغ كالعطر ، الذي يفوح ثم يهيمن على مجامع من يناله ، فتألفه الألباب قبل أن تعيه العقول .

فكرت في سكون حالها وثبات نظرتها ، فكأنها يوم أن نطقت هيكل بديع الصنع ، يخرج من جوفه طيب لا كلام . . . أجابت :

- إن قُلْتُ وسُمِعْتُ ، ولم تأتني بما أريد فهو الموت المحقق . . . في تلك اللحظة لا أدري ما الذي انتابني ، إلا أنني وجدت نفسي متجها نحو بساطها العجيب ، أحاول أن أقترب منها لأرى هل محدثتي من الإنس أم من الجان !!

حاولت الاقتراب منها مراراً فلم أتمكن ، وكأن ذلك البساط صار سراباً لا يظهر إلا من بعيد .

خطر في نفسي : لعل البعد حالها !

عدت إلى مكاني متأدباً ، وقد أسفت أن دفعني الفضول إلى مثل هذا الفعل ، وقلت :

ـ معذرة سيدتي . . . فما كان اقترابي منك تطاولاً ، فأنا لست برجل مغامر ، وإنما أنا رجل خرجت أبحث عن «مدينة العلم»

وقد أخطأت دربي . . .

ثم سألتها :

ـ هل أنت من بنات حواء؟

أجابت :

ـ هي أمي .

فقلت :

ـ حمدا لله ! وما حزنك هذا وأنت منعمة محفوظة؟

فأعادت نبرة الصوت نفسها الذي كان يملأ بهو القصر الفارغ ، بأصداء أرق من وقع الريش على الأرض :

ـ لأني أريد . . .

لا أدري هل كان ردي هذا شطحة مجنون ، أم غاشية من فضول أحمق؟ فقد أجبتها في الحال :

ـ وما الذي تريدين سيدتي؟

قالت :

ـ أريد . . . قصر ماء . . .

عندما سمعت ذلك شهقت ، وخطر في نفسي : أنت ميت !

سألتني :

ـ ما بك يا هذا؟

أجبت :

ـ سيدتي إن اسمي «سهل» ، هذا اسمي كي تنسيه . . .

فلن يطول مقامي بينكم . فلعلك تذكرينني يوما فتقولين :
«رحم الله سهلاً » .
ودون أن تلتفت إلى حيرتي تابعت :
ـ أريد . . .
سألتها همساً :
ـ سيدتي ، ماذا تريدين بعد؟!
أكملت . . .
ـ أريد . . . طوقا من رمال ، ومداداً من دخان ، ورسائل من هواء .
همست في نفسي : إنا لله وإنا إليه راجعون ! الأولى كانت إخباراً ، والتوالي إقراراً . . .
وتابعت سائلاً :
ـ أما تريدين شيئا آخر من صاحبك «سهل» رحمه الله؟
قالت :
ـ لا .
حدثت نفسي وفكرت ، فقلت لعل هذه الفتاة اللطيفة المدللة لا تعي معنى الموت الذي نفهمه نحن ، فسألتها :
ـ وكيف أموت سيدتي؟

أجابت :

ـ تموت كما يموت الأحياء .

قلت في نفسي : إنها تعرف أكثر مما أعرف ، وتابعت :

ـ لعلها تكون ميتة حسنة .

قالت :

- اسأل عن «هلباجة» وخالفها .

سألت متعجباً :

- وما هلباجة هذه؟

أجابتني :

ـ لا عليك هي تعرفك .

الملك جبل والملكة سحابة

خرجت ، وهمي يثقلني وكأني أحمل جبال السروات على كتف ، وجبال العارض على الكتف الآخر ، فكيف النجاة حيث لا نجاة . . .

بينما أنا غارق في تفكيري ، وقد دارت بي تلك المدينة البهية ، بقصورها وبساتينها وطرقها الفارغة من الناس ، دون أن ألتفت إليها فقد تبين لي أنها ليست بمدينة العلم التي خرجت طالبا إياها . . .

إذ بي أسمع من يناديني :

ـ يا سهل ! يا سهل ! هون عليك ، هون عليك . . .

جعلت ألتفت هنا وهناك ولم أر شيئا . خطر في نفسي : هو الجنون يسبق الموت ، هذه قسمة حياتي .

ثم سرت إلى ما لا أدري ! مع ما تريد سيدتي . . .

سرت حتى وصلت إلى قرية ، قد خرج معظم أهلها لفلاحة الحقول ، وجدتها قد بنيت كلها من طين ، لا يظهر من منازلها إلا القباب ، وجدران تحمل هذه القباب . لونت أبواب تلك البيوت الدائرية بأزهى الألوان ، وعلى بساطتها خُطّت جدرانها الدائرية بأبيات من الشعر الرصين ، لفتها كما تلف أغصان الخيزران الصحاف .

بعض المنازل كانت قد غطتها قصائد شعر كاملة ، وبعضها الآخر لم يكتب عليها إلا بضعة أبيات ، من أجمل ما خط على تلك الدور :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

قلت في نفسي كهذه الدور المستديرة يسكن الإنسان خلقه كحلقة لا يخرج منها حتى يعود إليها .

بعدما تفحصت تلك الأبنية ، واستأنست بما كتب عليها من شعر جميل ، تذكرت بؤس حالي . . . فجلست أستظل

تحت شجرة كافور عظيمة ، واضعا يدي على رأسي ، وكأني بذلك أمنع عقلي ـ الذي أوشك على مفارقتي ـ من أن يطير .

لا أدري كم مكثت من عمر الزمان ، ولكني سمعت بعد مدة الصوت نفسه الذي ناداني من قبل :

– يا سهل لقد أتعبتني باتباعك ، يا رجل ! هون عليك . . .

تعوذت من إبليس الخسيس وقلت :

– وماذا بعد؟! ما هذا الصوت الذي يتبعني ويعاتبني؟

أجاب الصوت :

– هذا صوتي أنا يا سهل .

نظرت إلى أسفل عند قدمي لأجد سلحفاة تحدثني . . .

قلت :

– هذا كل ما بقي ، ليت أمي لم تلدني ، وما أنت؟

أجابت وكأني رأيتها مبتسمة :

– أنا ما ترى يا أخي ، أنا «حسونة» السلحفاة .

همست في نفسي : ومتى أصبحت أخاً لسلحفاة ؟!!

ثم رفعت صوتي عالياً وقلت :

– لا والله ! ما أنت بحسونة ، بل هلباجة .

ضحكت السلحفاة ، وأجابت متعجبة :

- هلباجة؟ ثم أردفت برفق :

- أنا حسونة يا سهل ، رأيتك وأنت خارج من بلاط سيدتي . . .

قاطعتها وأنا أحدق فيها النظر :

- آه ! أخبريني إذا ، ما هي قصة سيدتك هذه . . . إن كنت حقاً حسونة؟

بدأت السلحفاة المتحدثة بقول :

- باسم الله متمم النقص ، سيدتي يا أخي سهل ، هي «أميرة الظلال» . ولا يدري أحد كم عاشت من عمر الزمان . يروي بعضهم أن أباها الملك وأمها الملكة أحب كل منهما الآخر ، حباً لا مثيل له بين بني الإنس أو الجان . وشغف كل منهما بالآخر شغفاً لم يرد على أحد .

وقد أتت إلى الدنيا هذه الأميرة الحزينة ، لأمر تخفى حكمته علينا ، فقد أنبتها الكمال . . . والكمال كما تعلم يا أخي ليس لدنيانا ، وإن عرفناه .

أما عن أهلها فقد ذاع صيت ذلك الحب حتى ملأ المشرق والمغرب ، إلى أن وصل خبر حبهما إلى ساحر حاقد ،

عـرف باسم يدل على طبع ، فـقـد كـان الناس ينادونه «شريسن» . امتلأ قلبه الأصم ضغنا عليهما ، لتمام وكمال عشقهما ، فأراد أن يكسر فؤاديهما العامرين ، ويسقيهما مر الحرمان وحسرة البعد . . .

فكر وفكر هذا الشقي ، حتى راق له ما أوعز إليه أحد شياطينه ؛ وهو أن يحوّل أباها الملك إلى جبل رهيب عظيم ساكن على الأرض وأمها الملكة إلى سحابة لطيفة خفيفة تدفع بها الرياح فتهيم أبداً في السماء . فلا يأنسا معاً ، إلا مرة واحدة في كل عام ، بحيث تكون لحظات التلاقي مليئة دائما بحسرة الحرمان ، وحزن الفراق .

كانا كلما تلاقيا وتذكرا طول الشوق وقسوة البعد ، تنهمر دموعهما مطرا يملأ الأودية والآبار .

هذا كله حدث يا سهل منذ أول الزمان ، ولا يزال حبهما يُحْيي الحقول والأودية ، وأحياناً ، ينزل سقيا عذاب تفسد البلاد كلما زاد تحسرهما .

أما ابنتهما الساكنة ، فهي تعيش وحدها في هذه المدينة البديعة ، لا تسأل إلا عما تريد . . .

وأحيانا تغني ، وفيما تغني :

يا غـــافـــلا عـــمـــا تُجِنُّ ضلوعي

أنســيت ويحك عــبــرتي ودمـوعي

يقولون إنها تعني عبرات والديها وحسرتهما التي نسيها الناس ممن سئموا شدة حزنهما .

فعندما عَرَفتُ بأن رجلا شجاعا قد أخذ على نفسه العزيزة أن يبحث لأميرتنا عما تريد ، أردت مصاحبتك . . .

بعد أن أتمت حسونة كلامها ، خطر في نفسي أنه لا ضير إن كنت أخا لمثل هذه السلحفاة ، ثم قلت لها ناصحاً :

- وما تفعلين بمصاحبة شقي ، حاله حال الواقف على وتد؟

أجابت حسونة بحزم :

- تركت اليأس يملأ قلبك يا سهل ! أتخشى الموت وأنت تعلم أن «نَفَسَ المرء خطاه إلى أجله» ؟ لن تترك وقد دفعتك شهامة في نفسك ، وهمّة في طبعك إلى النهوض بمثل هذا العمل . . .

قلت في الحال ، خشية أن تُنسب إلي محاسن لا أملكها :

- والله لم يدفعني سوى فضولي يا حسونة ، وسوء تقديري لعواقب الأمور .

هزت السلحفاة الطيبة رأسها وقالت :

- الفضول في ما هو حسن تحمد عقباه يا سهل .

تنهدت ثم أضفت :

- وما الحَسَن في قصر من ماء ، وطوق من رمال ، ومداد من دخان ، ورسائل من هواء؟ قد تركت البحث عما أرغب «مدينة العلم» وجهتي وأملي ، لأبحث عما لا يوجد . . .

وتقولين هذا حسن ! ما الخير في ذلك ! سبحان الله !

وجعلت أردد :

ليس لها من دون الله كاشفة !

ليس لها من دون الله كاشفة !

سكتت حسونة متحسبة لضيقي ، وجلسنا سوياً لا يكلم أحدنا صاحبه .

البئر السحري

عند الغروب عاد المزارعون إلى بيوتهم ، وجلست أنظر إليهم وهم يغنون بصوت واحد :

ألا لا يذم الدهر من كـان عـاجـزا

ولا يعـذل الأقـدار من كـان وانيـا

فـمن لـم تبلِّغه المعـالي نفسـه

فـغـيـر جـدير أن ينال المعـاليـا

قلت : والله غـريب أن يتـغنى هؤلاء الفـلاحـون بمثل هذا الشعر!

سلموا عليَّ وأنا جالس تحت تلك الشجرة وقد ملئت بنغم العصافير العائدة إلى أعشاشها ثم سألت أحدهم :

– ما اسم قريتكم هذه يا أخي؟

أجابني الرجل :

- «دخان» .

قلت :

- سبحان الله ! غريب هذا الاسم !

قالوا :

- ما غريب إلا أنت يا رجل . وما اسمك؟

أجبت :

ـ اسمي سهل ،

قالوا :

- مرحبا بسهل ، أنت بين إخوة وأهل .

استحسنت الرد وقلت :

ـ عال والله ! وماذا تفعلون هنا غير الفلاحة؟

قالوا :

- نحن نفلح ستة أشهر من السنة ، والستة الأخرى نقضيها في طلب العلم ، هذا ما يفعله الشيخ منا والصغير . . .

ثم دعاني أحدهم إلى داره يقال له «سامح» أخذنا نتبعه أنا وحسونة ، إلى حيث وجدنا منزلاً صغيراً له باب أزرق ، يعلو هذا الباب نقش ورسم كأنه كتب منذ زمن بعيد ، وبخط لم

أستطع قراءته . فرفعت حسونة حتى ترى ما أرى ، وسألتها :

- هل رأيت كتابة مثل هذه من قبل؟

أجابت :

- أجل ، إنها تشبه كتابة توجد فوق عرش مولاي الملك .

سألت سامحاً :

- يا أخي سامح ماذا تعني هذه النقوش؟

هز رأسه قائلاً :

- لا أدري . . . هذا البيت كان لرجل من بني سهوان .

يقال إن هذا الرجل كانت له لحية طويلة حمراء ، وكان إذا مشى اهتزت الأرض لمشيته ، وإذا تنحنح خُيل للبعض أنهم يسمعون رعداً .

عاش هذا الرجل في زمن جدي ، وقد خرج من هذه الدار إلى حيث لا عودة . الله وحده أعلم بوجهته ومستقره . لم يستغرب أحد فعله ، فقد كان غريبا ، وكل غريب للغريب نسيب . بعد مرور زمن طويل بدأ جدي بترميم هذا البيت لما أصابه من بلى ، وقد أخذ عهداً على نفسه أن يحافظ عليه لحين عودة صاحبه . وقد توارثنا هذا العهد منه أباً عن جد فقام أبي بالحفاظ على البيت ، كما أقوم أنا الآن ومن بعدي ابني

إن شاء الله . وسوف أنزلك فيه أنت وهذه السلحفاة ضيفين عزيزين ، فبيتي لا يسعنا جميعاً .

قلت بدهشة :

- ما هذا العهد الغريب يا سامح ؟ تنفق على بيت لا تسكنه ، ولرجل قد مات منذ زمن طويل !

فأجاب سامح بتعجب :

- يا سهل ما غريب إلا أنت؟ وما أدراك أنه قد مات؟

قلت :

- أما تعرفون ما اسم الرجل؟

أجاب سامح :

- بلى ، يقال إن اسمه «سفينة»؟

قلت :

- ما أغرب الاسم؟

نظر سامح إليّ وقال :

- يا سهل . . .

قاطعته في الحال :

- لا تكمل بل أكمل أنا ، «يا سهل ما غريب إلا أنت !»

وضحكنا أنا وسامح وحسونة .

في تلك الليلة نفسها ، وبينما أنا مضطجع في دار سفينة ، أفقت على صوت همهمات منغمة ، فخرجت إلى صحن الدار ـ حيث يوجد بئر قديم ـ أتبع الصوت ، وإذا بي أرى امرأة طويلة القامة تتشح برداء أحمر ، تدور ببطء من حول البئر وهي تغني بصوت خافت :

– قرط حبيبي طاح في جمّة البير . . .

سألت :

– من أنت يا امرأة؟

التفتت نحوي لأرى حسنها وفتنتها . لم أبصر في حياتي أجمل منها أجابت :

– ما لك أنت والسؤال من أنا؟ والدار ليست بدارك؟

وقفت لا أقدر على الكلام . ضحكت وكاد مبسمها يقتلني لنضارته ، أردفت قائلة :

– وما يدريك أن يكون هذا البيت بيتي؟

أجبتها :

– يا سيدتي ، لعله يكون . فأنا غريب . . .

قالت :

– أعرف من أنت .

قلت :

- عجيب ! فليتك تعرّفينني بنفسك سيدتي .

لم تجبني ، وأخذت تغني بصوت خافت ساحر ، كانت ليلة مقمرة والنسيم مليء بأريج الزهور ، فلو طلبت مني عمري لقلت : فداؤك مولاتي .

جلست على حافة البئر وقالت بغنج :

- يا سهل لقد وقع قرطي في هذا البئر وأنا أخشى الظلام . أترى قرطي؟ ها هو يلمع تحت ضوء القمر الآن !

انظر يا سهل . . .

نظرت ، وإذا بي أرى بالفعل شيئا ، على الرغم من صغره وعمق البئر يلمع داخل الجب . أجبتها بحماس :

- لا عليك سيدتي ، أنا آتيك به إن شاء الله .

أمسكت برشا البئر ، وبدأت بالنزول فيه . . . رفعت رأسي إليها فرأيت وجهها والبدر من فوقها ، لا أدري والله أيهما كان الأجمل .

ابتسمت ثم قالت :

- يا سهل الآن أخبرك اسمي . . .

ناديت ، وكنت قد وصلت إلى أقصى البئر :

- ما هو يا سيدتي؟

قالت :

- أنا «هلباجة» .

نظرت من حولي ، وأنا متدل في بطن جب خاو مظلم ، أنطقني لسان حالي : يا أحمق !!

سمعت ضحكها وهي تقول :

- صدقت والله !

ثم صارت تغني :

لكل داء دواء يستطب به

إلا الحماقة أعيت من يداويها

وارتفع ضحكها . . .

أفلتت الحبل الذي كان يحملني ووقعت في قاع البئر ، أكملت :

- قل لصاحبك قد غلبتك هلباجة وحبستك في سجن أشد من حبس الهوى . . .

هنا صرت أصرخ بأعلى صوتي :

- حسبي الله ونعم الوكيل عليك !

قالت :

- لن يسمعك أحد ، ففي هذا البئر السحري أنت تسمع وترى ، ولا يسمعك ولا يراك من بخارجه ، وإن نظروا لن يبصروا إلا ظلاماً والصمت يملؤه .

- قلت :

- يسمعني ربي يا خائنة !

أجابت :

- خنت نفسك يا سهل قبل أن أغدر بك . . .

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه

ومن لم يكرِّم نفسه لم يكرَّم

كهف الزمان

تركتني ولا أدري كم بقيت أنادي لعل حسونة أو سامح يسمعانني .

لا فائدة فلم يسمعني أحد ، كان الأمر كما وصفت تلك اللئيمة . لم فَعَلَت ذلك بي؟ ماذا جنيت لأستحق هذا؟

مسكين ، مسكين يا يوسف ! فكرت فيه عليه السلام ، فما أوحش هذا المكان وأمثاله ! استحييت من ضيقي وفزعي عندما تذكرت أنه كان طفلاً . ثم قلت لنفسي - إذ لم يبق من أحدثه سواها - تجلدي لعل الله يريد بك شيئاً ، وأفرغي روعك يا نفس بحسن الظن في خالقك ، فهو غيب يصنع فينا غيباً . . . صرت أحدث نفسي بمثل هذا الحديث ، حتى أحسست بعد طول جلوس ، بنسمة هواء خفيفة تأتي عن

يميني .

خطر في نفسي :

من أين يا ترى هذا الهواء؟ لعل الفرج يأتي بأهون الأسباب؟

نظرت من حولي ثم قمت إلى حيث مصدر الهواء ، وصرت أزيح التراب والأحجار حتى انكشفت لي فتحة في جدار البئر ، ووجدت أن هناك ممراً ضيقاً بين جدار البئر وقاعه . . .

فكرت : . . . لعله مخرج؟

حبوت حتى وصلت إلى منتهاه ، ثم خرجت إلى غار ضيق رأيت رجلا عجوزاً جالساً فيه .

قلت :

- بسم الله الرحمن الرحيم ! من أنت؟

أجابني ولم يرفع عينيه نحوي :

- أنا رجل مثلك .

قلت في نفسي : والله لقد ظننت أنه لا يوجد من هو أحمق مني في هذه الدنيا ! ماذا يفعل هذا هنا؟

ثم سألته :

- ما الذي أتى بك إلى هذا المكان يا عم؟

أجاب :

- التي أتت بك .

سألت :

- هلباجة !!؟ ولم فعلت ذلك بنا؟

تنهد الرجل قائلاً :

- لقد نسيت الكلام يا هذا ، والتحاور فن رُزئته ، فمهلاً . . .

آثرت الصمت ، كما طلب مني ، وبقيت بصحبته ، حامداً لله على ذلك ، وإن كادت تكون صحبة صمت ، لولا بضع كلمات كانت تفاجئني من حين لآخر .

تذكرت ما قالته هلباجة : «قل لصاحبك لقد غلبتك هلباجة وحبستك في سجن أشد من حبس الهوى» .

فسألته :

- ما الذي كانت تعنيه؟

ضحك الرجل ، وما زال يضحك حتى قلت ليته سكت . . .

- تحسب أن الهوى سجن ، بل الحقد قيد وحبس ،

فـــأرُوح حـــرا من مـــذلتـــهــــا

والحـــر حين يطيــعــهـــا عـــبـــد

إنهـا لـم تغلبني ، وإنما خـسـرت نفـسـهـا هذه الحـمـقـاء بظلمنا . . .

سألته :

- ومـاذا قـصـدت من قولها حبس الـهـوى ، وكـيف تكون الخاسرة وهي حرة طليقة ، وأنت في هذا المكان الذي نسكنه نتوسد الصخر؟

تابع صاحب الغار :

- سأحدثك الآن بقصتي ، لأنك رجل أديب . . .

أنا «سفينة» من «بني سهوان» . . .

قلت بتعجب :

- أنت ذلك الرجل الذي إذا مشى تهتز الأرض لمشيته ، وإن تنحنح ارتعدت السماء؟!!

أجاب مبتسماً :

- هو بعينه يا صاحبي . . . وما اسمك أنت؟

قلت :

- أنا سهل .

أكمل سفينة قصته :

- ولكن سجنتني تلك اللئيمة يا سهل في كهف الزمان ، وهرمت بالبعد عن «هوى» . . .

سألته :

- ومن هوى؟

قال :

- تسألني عن هوى . . . سكت ثم أردف :

- قابلت «هوى» وأنا مسافر قاصداً الحج . ذهبت لأعبر الصحراء ، وكنت قد تركت أهلي ، وهم أناس أحرار شجعان فارعو الطول ، ونحن ـ بني سهوان ـ نعمر ولا نهرم . . .

ذات ليلة وأنا متكئ أنظر إلى نجوم الليل تسبح بصمت من فوقي في بحر الظلام ، سمعت غناء أتاني من بعيد .

غناء يا سهل وكأن ذلك الصوت حمل معه كل أطياف السعادة وأنغام السكينة . . . مشيت نحوه بحثا عن مصدره ، فاعتليت كثيباً عظيماً ، ثم نزلت منه لأرى أجمل شيء وقعت عليه عين . رأيت امرأة تغني وتدور ، فتدور معها الأنجم من فوقها وهي تدور ، امرأة تغني وترفع يدها فتتبعها الأفلاك .

هللت :

- سبحان الله خالق كل شيء ! لقد كشف لي عن سر من أسرار خلقه . وجعلت أبكي . . .

توقفت المرأة عن الغناء التفتت نحوي ثم نادت :

- تعال يا سفينة .

سألتها وأنا أسير نحوها :

- كيف عرفت اسمي؟

أجابت :

- أنت من أحب .

جلست ، وبجوارها ربضت غزالة ، من شدة جمالها خيل لي أنها من ذهب ، صارت «هوى» تمسد رأس الغزالة ، وتهمس في أذنها بما لا أسمع . ثم قالت الحسناء :

- أترى هذا الليل يا سفينة؟ أنا أكتحل به كله ، وردائي ألقته يد الشمس عليّ . أنا مولاتك «هوى» ما يكسوني إلا الهناء ، يعجب من جمالي كل الورى ، ولو كنت أمنية لصرت بين الأماني غاية المنى .

بعدما وقعت عليها عيناي ، وعرفها قلبي ، عزمتُ أن أبقى بجوارها لا أفارقها ، فآثرت أن أقيم في هذه القرية القريبة من مكان لقائنا لا أعود إلى مساكن أهلي بني سهوان البعيدة .

بعد أول لقاء تغيبت «هوى» عني . . . فكنت أخرج في كل ليلة أبحث عنها ، دون فائدة . . . لا تأتي هوى .

وذات ليلة سمعت غناءها ، فأسرعت نحو الصوت لأراها في كامل بهائها . توقفت عن الغناء ثم قالت :

- يا سفينة لقد تركتك إشفاقاً عليك . . . أما تعرف أن هذا الحب حبس والشوق قيد وأنت من قوم أحرار؟

أجبتها :

- ما يقوى على إعطاء قلبه إلا الحر . وقد ملكتك فؤادي .

قالت ضاحكة :

- الهدية لا ترد يا سفينة !!

قلت :

- هو كذلك يا مولاتي هوى .

هلباجة

كنا نلتقي كل شهر مرة واحدة ، عندما يختفي القمر ويغمر السماء ضياء الأنجم ، نتسامر وتحدثني عن قصص الزمان الغابرة .

قلت لها ذات ليلة :

– يا مولاتي هوى لا يكفيني هذا اللقاء ، فأنا أطمع في وصل لا فراق بعده .

قالت :

– هذا وصل القلوب وسلوة الأرواح . . . أما سمعت يا سفينة بقصة الملك «جبل» والملكة «سحابة»؟

أجبتها :

– لا والله !

فحكت لي قصتهما ، ثم أكملت :

- هذا الحب ليس لدنيانا يا سفينة ، فلن أكون لأحد حتى يرجعا إلى بعضهما لأعرف أن المستحيل ممكن !

قلت :

- عهد عليَّ أن أعيدهما إلى بعضهما .

ابتسمت قائلة :

- إني أخشى عليك من وعد لن توفيه ، وسجن أشد من حبس الهوى .

في تلك الليلة نفسها ، آخر ليلة أرى فيها وجه حبيبتي هوى ، عدت إلى داري في قرية دخان ، وقبل أن أستغرق في النوم ، سمعت صوت نحيب يتفتق له القلب ، فخرجت إلى حيث البكاء ، لم أر أحداً . . . والنحيب يزداد . . .

وإذا بي أسمع صوت هوى تناديني :

- يا «سفينة» الغوث ! يا «سفينة» الغوث !

كدت أجن ، تلفت يميناً ويساراً لم أر أحداً في الدار . خرجت مهرولاً من منزلي لم أسمع ذلك الصوت ، عدت إلى الداخل فسمعت هوى تبكي . . .

صرت أنادي :

- أين أنت يا هوى؟

ثم وجدت أن الصوت يصدر من البئر الذي هو في داري ، نظرت فيه فلم أر أحداً وما زلت أسمع البكاء ، ناديت :

- يا هوى ، أأنت في البئر؟

أجابت :

- أغثني يا سفينة !

لم أفكر لحظة ، وأمسكت بحبل ، ثم نزلت في البئر حتى وصلت إلى منتهاه ، وأنا أنادي بلهفة لا يعلم مداها إلا خالقي :

- يا هوى تكلمي حتى أعرف أنك بخير ! يا هوى أجيبي ، هل أنت بخير؟

ولم يجبني سوى الصمت . . .

بحثت عن هوى فلم أجدها ، نظرت إلى الأعلى فإذا بي أرى هوى تنظر إليَّ من خارج البئر قلت : الحمد لله هي بخير . ربما خيل إلي أن صوتها خارج من هذا البئر؟

تبسمت هوى ثم قالت :

- لقد وقعت يا سفينة .

ورأيت عينيها تنكسران أمامي كبلورتين ، أدامت النظر إليَّ بجفنين فارغين من مقل ، وصار ذلك الحوَرَ الفتان ظلاماً ، كأن

عينيها أصبحتا بئرين قاتمين لا قرار لهما ، فعرفت أنها لم تكن هوى .

سألت :

- من أنت؟

قالت :

- أنا «هلباجة» أخت «هوى» . . . لن تراها بعد اليوم .

سكت سفينة . . . فقد غلب عليه الحزن ولم يقدر على إكمال قصته ، فقلت لأخفف عنه :

- والله يا سفينة لقد صرنا نحن الاثنين أسرى لدخان .هل سمعت يا صديقي بأعجب من هذا المصير؟

ذكرت ذلك وأنا أضحك ، فما عساي أفعل بعد أن سمعت ما سمعت ، ورأيت ما رأيت؟ هذا سفينة من بني سهوان ، القوي الشديد ، قابع في بطن الأرض حيث أمسى شبيها بظل ظله الأول .

قال سفينة معاتباً :

- أهزل في جد يا سهل؟

سكت وقلت في نفسي : أبشر الآن يا سهل ، بطول صمت من صاحب الغار . . .

مداد من دخان

في كل صباح كانت الشمس تطلع علينا من شقوق ينساب النور منها في خطوط مضيئة تملأ غارنا المظلم ، رحمة من ربنا .

سألت سفينة :

- يا أخي قل لي كيف حصلت على هذا الزاد الذي نأكله؟

أجابني :

- يأتيني به ثعبان أبيض يقال له «زخرف» ، يسحبه في قفة ، ويقول لي :

«خذ يا سفينة نصيبك من الدنيا ، فما من دابة في جحر ، أو طائر في سماء إلا ويبعث الله برزقه ، وأنت لست بأهون على

الله منهم يا ابن آدم» .

قلت :

- سبحان مسبب الأسباب !

ثم سألني سفينة :

- خبرني يا سهل ، كيف وصلت إلى هذا المكان الذي نحن فيه؟

أجبت بحماس :

- أقول لك يا سيدي . . . كنت قد خرجت أبحث عن مدينة العلم ، وشاء القدر أن أخطئ دربي ، وأدخل مدينة عظيمة ظننت أنها مدينة العلم ، لها سور من الحجر الأحمر ، ولها اثنا عشر باباً ، كل باب أعظم من الآخر وله اسم ، دخلت من باب يقال له «باب الوجود» كان مفتوحا ولكن دون حراس . استغربت ذلك أول الأمر ، ولكن فضولي زاد على عجبي ، ومضيت أسير في شوارع هذه المدينة وأسواقها . . .

ماذا أصف لك يا سفينة؟ لو قلت لك إن شوارعها رصفت بالمرمر الوردي ، وأسواقها ملئت بأشياء لم أرها من قبل ؛ من قماش وفاكهة وعطور ، وكانت الأشجار البهيجة تتراص من حول أحواض ماء براقة ، تسبح فيها أسماك ملونة كأنها من

الجوهر . أما زهورها فيخيل لك أنها تُصَبُّ صبا على الطرقات والجدران من كثرتها ، ناهيك بأريجها الخلاب وألوانها الزاهية .

- وأهل هذه المدينة؟ سأل سفينة مقاطعاً .

- أهلها يا سفينة . . . في الواقع لم أر منهم إلا صبياً صغيراً ، كان ينظر إلي من شرفة دار ، فسألته :

- يا ولد أين الناس؟

قال :

- أنت غريب ، والغريب لا يأتينا في مثل هذا الوقت . إن أبواب مدينتنا تغلق على كل غريب ، فنحن أهل هذه المدينة نتشاءم من ساعة بعينها من كل سنة ، فندخل بيوتنا ولا نتحدث ولا نخرج إلا بعد انقضائها . وقد وصلت إلينا أنت في هذه الساعة المشؤومة من الوقت الذي لا نتلفظ به حتى عداً ، فنقول ثمانية وواحد . . .

قاطعته مستفهماً :

- بدلاً من تسعة؟

تابع الصبي غاضباً :

- اذهب بعيداً عن دارنا ، لا أدري ما الذي أتى بك إلينا؟

تركته وسرت إلى حيث رأيت قصراً شامخاً ، يموج من كثرة

النقوش والألوان التي تغطي جدرانه . قلت في نفسي :

«هذا والله صنع بديع ! فكأن جدرانه كسيت بوشي»

وعندما دخلت القصر يا سفينة ، رأيت ما هو أجمل وأنا أتجول فيه ، سمعت خرير ماء لطيف ، فوجدت أن هناك قنوات ونوافير من بلور ، خيل إليّ أن الماء فيها يحوي ماء من رقتها وشفافيتها ، حتى وصلت إلى بهو القصر ، فرأيت من تسمى بأميرة الظلال . . .

حدثت سفينة بقصتها وبما تريد فتعجب وقال :

- لعل تلك الساعة المشؤومة التي حدثك بها الولد ، هي الساعة التي وقع فيها النحس على ملك هذه المدينة وملكتهم ، وأميرة الظلال هذه هي ابنتهما . قد جمعني بك الزمان يا سهل ، لتكمل ما لم تحكه لي هوى . . .

ثم أضاف سفينة :

- لقد بعث الله بك إلى هنا لسبب ، وهذه القرية التي تسمى دخان ، يقال إن لأهلها مداداً خاصاً يصنعونه من حجر يأخذونه من صخرة نيزك ، قد سقطت في الصحراء بجوار قريتهم هذه فيطحنونه ويخلطونه بطريقة خاصة ، ثم يترك هذا المداد لألف عام ، فإن كتب به بعد ذلك ، ونظرت إلى الكتابة

رأيت لون المداد أسود ، وإن رفعت الورقة إليك صار لونه ذهبياً ، وإن نظرت إليها من إحدى جوانبها صار لونه فضياً ، وإن قلبت الورقة ، اختفت الكتابة وكأنها لم تخط !!!

هذا هو يا أخي «سهل» مداد دخان . . .

زخرف حامل الزاد

بعدما أخبرني «سفينة» بأمر هذا المداد العجيب ، أحسست أن الأمل يقفز في قلبي كالظبي في البيد ، وسألته في التو :

- وكيف الحصول عليه يا سفينة؟

أخذ سفينة يضحك حتى قلت ليته سكت ، ثم قال :

- آتيك به يا سهل ، وتبقى أنت وهو قابعان هنا جنباً إلى جنب . . . أما تفكر في الخروج أولاً قبل الحصول على ما تريد أميرتك؟

قلت :

- صدقت ، ولكن كيف؟ لابد من حيلة ، لو حدثت زخرفا؟

أجاب سفينة بحسرة :

– وهل تظن أنني لم أفعل ذلك مراراً يا صديقي . فقد أمضيت سنين لا عد لها أفكر وأحاول ، حتى شفيت أخيراً من الأمل . وزخرف لا ينطق إلا بما قلت لك ، ثم يمضي .

أردفت :

– وإن أمسكنا به يا سفينة ولم نفلته إلا إذا دلنا على طريقة للخروج من الغار . . .

قاطعني سفينة :

– وإن أفلت ولم يدلنا ، نخسر كل شيء .

قلت ساخراً :

– نعم يا أخي ، نعم ، نخسر هذا القصر الذي نحن فيه ، وهذه الحياة المنعمة التي نحياها . . . يا سفينة ، هذا قبر نسكنه أحياء فلا ضير إن متنا وصرنا فعلاً أهلاً له .

فكر سفينة ملياً ثم أجابني :

– والله يا سهل إني أتحرج من هذا الأمر . فإن لزخرف فضلاً عليَّ ، وصعب أن أغدر به .

قلت :

– وما الفضل يا سفينة في أن يتركك في هذا المكان ، وهو

يعلم السبيل لخروجك .

أجاب سفينة بهدوء :

- وإن لم يكن يعلم وفعلنا ما فعلنا ، تقتلني يا سهل حتى لا أحيا يوماً بهذا العار .

خطر في نفسي :

«والله قد جن الرجل ! فقد ألفت نفسه هذا الغار !!»

ثم قلت له :

- يا سفينة إن أردت أن تبقى مدفوناً هنا أنت ومروءتك فلا ضير ولكن فكر في صاحبك سهل . . . وهوى ، وأميرة الظلال ، والملك جبل ، والملكة سحابة . كلنا معلقون في حبل زخرف ليسحبنا به إلى الأمل الواعد . هذا الثعبان لن تخونه بل إنك تنجينا جميعاً . . .إن أردت أمسك به أنا ، ولا عليك .

فكر سفينة ثم قال :

- يا سهل صعب عليَّ هذا الأمر ولكن . . .«اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » .

تنهدت وقلت «الحمد لله مثبت العقل» . ففككت إزاراً كان يشد ظهري ، وبقيت منتظراً زخرفا . بعد بضعة أيام أتى زخرف ، وجدناه عندنا فجأة ، قال كعادته :

- السلام عليكما ، خذا نصيبكما من الدنيا ، فما من دابة في جحر ولا طائر في سماء إلا ويبعث الله برزقه ، وأنتما لستما بأهون على الله منهم يا ابني آدم .

قلت هازئاً :

- شكراً لك يا زخرف ، ولكن وددنا لو تبقى معنا قليلاً حتى يكتمل أنسنا .

سحبته ثم ربطته في إزاري ، وأضفت بتشف :

- لن تخرج حتى نخرج جميعاً .

كل ذلك وسفينة مطأطئ رأسه يردد :

«لا حول ولا قوة إلا بالله » .

قال زخرف :

- ليس عندي لكما سوى الزاد يا سهل ، ولن أقول أكثر مما قلت .

ثم صَمتَ . . .

حدثت نفسي أنه بعد قليل سيطلب مني سفينة أن أقتله من شدة ما ظهر عليه من حزن .

بقينا هكذا يومين ، لا يأكل سفينة شيئاً من الزاد الذي أتى به زخرف ، وقد استحييت من نفسي وأنا أمد يدي إلى

القفة التي أتى بها زخرف لأخرج منها الطعام .

في اليوم الثاني وكزت القفة وقلت :

- يا زخرف ، الصمت لن يغنيك عن شيء . . .

لم يجب ولم يتحرك ، قلت همساً :

- يا لئيم !

في اليوم الثالث ، غلب علي النعاس وبينما أنا نائم ، أخرج سفينة الثعبان من محبسه ، وهرب زخرف من الغار ومعه الأمل . . .

رسائل من هوى

لا أدري ما الذي قلت ولا ماذا فعلت ، عندما صحوت وعلمت بما حدث ، ولكن سفينة لطمني لطمة وقعت على إثرها مغشياً عليَّ ، ولم أفق إلا وسفينة ، يمسح وجهي بالماء ، قلت :

- ما الذي فعلت يا سفينة ! أتحسن إلى سجانك؟ أما تعلم أن الفرص تمر مر السحاب !! قتلتني يا سفينة ! قتلتني !

قال سفينة :

- هو ليس بسجان ، وما كل قول له جواب يا سهل .

مضت بضعة أيام لا أحدث سفينة ، ولا أنظر إليه ، فهو قاتلي .

فكرت في حالي وجعلت أسائل نفسي :

مـا الـذي دعـاك إلى الخـروج من بيـتك وترك أهلك إلى هذا الـجب؟ ما الذي جعلك تسأل أميرة الظلال عما تريد؟

بينمـا أنا على هذه الحال من الـحيـرة ، إذا زخرف أمـامنا يسحب القفة ويقول :

- السلام عليكما ، خذا نصيبكما من الدنيا ، فما من دابة في جحر أو طائر في سماء إلا ويبعث الله برزقه ، وأنتما لستما بأهون على الله منهم يا ابني آدم .

سألت بدهشة :

- زخرف؟

أجابني :

- أحسبت يا سهل أن أقايض إحسان صاحبك بغدرك؟

ليس لكما عندي سوى الزاد .

ثم التفت نحو سفينة وقال :

- ولكن يا سفـينة هل تريدني أن أحـمل لك رسـائل إلى هوى؟

هذا أفعله جزاء مروءتك وحسن فعلك بي .

قال سفينة :

- أتعرف مكانها يا زخرف؟

قال :

- أعرفه .

سأل سفينة :

- ولكن بماذا وعلى ماذا أكتب؟

أجاب زخرف :

- آتيك بمداد من «دخان» . . . قد دفن هذا المداد تحت أرض المدرسة في صندوق خشبي . وآتيك بورقة من شجرة أسكن بجوارها . . . تصنع من غصنها قلما ، وتكتب على سطح الورقة الحية الخضراء بمداد السماء ، فكأنها وقتذاك تسمعك وأنت في غارك هذا الأظلم ، فالتمني شيء من وصل ، يا سفينة ، وكم رافقت الأماني سنين . . .

ما أدعوك إليه يا صديقي أقرب من ذلك وصلاً . فإذا خرجت بهذه الرسائل من الغار ، ورآني حارس الجب وهو شيخ من الجن اسمه «رمش» ، قد قيد لمراقبتي حتى لا أحمل معي شيئاً منكما إلى خارج الغار ، أريه الأوراق مقلوبة بحيث تختفي الكتابة ، فيظن أنني أحمل حزمة أوراق شجر من مكان إلى آخر .

بعدما خرج زخرف ، نظر إليَّ سفينة نظرة معاتب .

سألت رفيقي :

- يا سفينة ، لنكتب إلى غيرها أيضاً كي يعرفوا مكاننا .

قال سفينة :

- لا أكتب إلا إلى هوى !

صار سفينة يكتب لهوى ، و زخرف يأخذ الرسائل . . .

لم تجب هوى .

بعد مضي وقت طويل ، سأل سفينة زخرفاً إن كان قد أوصل الرسائل إلى هوى ؟ أجابه :

- أجل قد وصلت . ولم يزد على ذلك .

ذات يوم . . . أتانا زخرف يسحب صندوقاً صغيراً من الخشب ، وقال :

- يا سفينة ، هذه رسالة من هوى .

نظر إليه سفينة بتعجب ، ثم أخذ الصندوق وفتحه ، فإذا بداخله قارورة ملونة مليئة بالعطر .

قلت في نفسي : ما أغرب هذه الرسائل . هو يكتب على ورق الشجر ، وهي تبعث الرد في قوارير !

ولكني آثرت الصمت والتأمل .

عندما فتحها سفينة ، ملأت الغار طيباً لم أعرف أحلى

منه .

قال زخرف :

– . . . لو تركتها مفتوحة .

أخذت القارورة لأنظر فيها ، فرأيت الطيب بداخلها يدور كالدخان المحبوس ، وقد كتب على هذه القارورة :

«هذه رسائل تأتيك من هوى ، قدِ خط الشوق من أنفاسها شذى ، تَضوّع بما يملأ الجوى» .

بقينا يومين ننعم برائحة الطيب هذه ، التي لا يمل منها إلا الشقي .

فإذا بنا نسمع من بعيد لغطاً ، فخرجت من الغار إلى البئر ، ونظرت إلى أعلاه لأرى جمعاً من الناس يحيطون بالبئر ، منهم سامح وحسونة . نسيت نفسي وصرت أناديهم . . . بالطبع دون جدوى . فهمت أن العطر قد فاح وملأ الغار ، ثم أخذ طريقه إلى خارج البئر ، فملأ البيت ثم القرية ، وأتى أهل القرية للنظر في شأن هذا البئر الغريب الذي يفوح من جوفه الطيب .

تشاور أهل القرية ، وقرروا النزول في البئر ، قلت :

– عال والله ، لقد أتى الفرج بفضل رسائل هوى . . .

وناديت سفينة كي يرقب معي النجاة .

عندما خرجنا من بطن الجب ، أراد سفينة في التو الذهاب إلى حبيبته هوى . ولم يحاول سفينة إخفاء أثر الزمان عليه ، قلت له :

- لو تعممت يا سفينة حتى تخفي شيب رأسك ، ولو حنيت ذقنك . . .

ضحك كعادته ثم قال :

- إن كانت تحب في الزمن ، فهو الأبد الذي ترضاه ، وإن كانت تحب في البدن ، فهو الحاوي لنور تراه .

خرج سفينة مستبشراً وخرجت معه ، وسرنا إلى المكان الذي اعتاد فيه رؤيتها ، بقينا هناك زمناً نسامر الأماني بدلاً من «هوى» . . .

هوى لم تأت للقائنا ! وتتابعت الأيام . . . يجر كل يوم حسرة أكبر من تلك التي سبقته ، دون أن تأتي هوى .

حزنت على سفينة وأسفت لحاله ، فقد ظل صامتاً متجلداً كعادته ، لا يشتكي ولا يمل من حسن الظن بحبيبته الغائبة . كل ما كان يقوله هو :«لعلها تكون الليلة . . .؟»

ثم تأتي تلك الليلة وتمضي شحيحة مثل أختها . . . حتى

صار سفينة يهمس بقوله :«لعلها تكون الليلة؟»

وكأنه يحدث نفسه .

لم أحتمل حاله ، فقلت له :

– يا أخي لو أنها تغيرت؟!

قال :

– لا ، لا ! هوى لن تتغير ، فهي غير الناس ، هي التي تبعث رسائل من طيب ورياحين ، وهي التي تكتحل بالليل كله ، وهي التي إن دارت تدور معها الأنجم . . . سكت هنيهة ثم قال :

– . . . وهي من أحب .

ثم جعل ينشد :

يا لائمي في هواه والهوى قدر
لو شفك الوجد لم تعذلْ ولم تلم
لقد أنلتك أذنا غير واعية
ورُبَّ منصت والقلب في صمم

قلت لنفسي ، هذا جزاء سنمار ، وسكت حيث أسكتني .

كاتب النسيان

مضت أيام كان سفينة يخرج في كل صباح مع أهل القرية إلى الحقول - فقد تعلم منهم الفلاحة - ثم يعود كما يفعلون هم في آخر النهار إلى داره .

أما أنا فبقيت في مسجد المدينة أطالع على ما كان يكتنز في مكتبتها العامرة من صحف ، والحق أقول لقد ملئت بجواهر لا تَرِد على خاطر بشر ، ناهيك بمن يمر بهذه القرية فتظهر له بساطة ما أظهرت لي يوم أن وصلت إليها وأنا خارج من بلاط أميرة الظلال .

كنت قد ألفت مثل هذه الأمكنة ، فكانت هي الأقرب إلى قلبي ، لأنني نشأت في مسجد وتعودت أزمانه وأنغامه ، والقراءة التي تملأ أرجاءه ، وتتابع الأذان وبهجة المصلين ، وهم

يتراصون صفا تلو الآخر في خشوع يسكن القلب ، فبينما أنا في مسجد القرية هذا أسحب الكتاب من وراء كتاب ، أتصفحه ثم أعيده إلى مكانه ، إذ وقع في يدي كتاب له اسم عجيب ، وهو «كاتِب النسيان»!

عندما فتحته وجدت ما أدهشني أكثر من مسماه !!

وجدت أن صفحاته فارغة تماماً ، لم يخط عليها شيء ! قلبت الأوراق بحثاً عن سطر أو كلمة أو حتى حرف فلم أجد ، وبينما أنا على هذه الحال وقعت من بين تضاعيفه ورقة ، تناولتها فإذا هي جزء من رسالة ، وقد ظهر لي من حالها أن باقي الرسالة أبلاه حريق ! قلت في نفسي سبحان الله ! وحدقت النظر فيها فقد غمرني فضولي حتى إنني نسيت أن أجر أنفاسي إلى داخل أحشائي . أمعنت النظر فيما بقي بها من كتابة ، فوجدت هذه الكلمات :

« . . . يا بني إن وجدتني وقد واراني التراب ، فخذ المشكاة المعلقة عالياً في الكهف الذي فيه دفن الكنز ، واقرأ ما كتب عليها ثم أعده على سلمى ، تسلم بني من شر الدنيا . . .

أما عن سفينة فأخبره أنه كان على حق . . . ولا تفشِ

سراً قد ملكتك زمامه . . . »

قلت :

- سبحان الله ! كنز وسر ، سفينة على حق !

ما هذا؟ كأن سفينة قد أخفى عليَّ أمراً !

وخرجت مسرعاً أبحث عن سفينة .

عندما وجدته أظهرت له الرسالة ، وقلت :

- ما هذا يا سفينة ؟ أتخفي أمراً؟

قال :

- نعم ، أخفيه حتى لا أبدي سقطات من ماتوا .

سألت :

- ماتوا أم مات؟

أجاب :

- دع عنك يا سهل الفضول ، ماتوا . . . ماتوا جميعاً . . . وسلمى . . .

قلت :

- أستحلفك بالله إلا أخبرتني بقصة هذه الرسالة البالية ، فقد وقعت في يدي لسبب . يا أخي سفينة لعل الحكمة تنفذ إلى قلبي بسببها فيكون لك الفضل عليَّ في ذلك ، وثواب الله

أعظم . . . أم أنك قد نسيت ما طواه الكتاب؟

أجاب سفينة والأسى يملأ صوته :

- مثل هذا لا ينسى . . .

ثم سَكتَ .

قلت :

- سبحان الله ! وكيف وصلت هذه الرسالة إلى مكتبة المسجد؟

قال سفينة :

- لعلهم أخذوها من داري عندما غبت سنوات ، فوضعوا ما حوته مكتبتي في مسجدهم دون أن يلتفتوا إلى ما يصفون في جدارها وما تحمله هذه الصحائف من أسرار .

أعدت عليه . . . أما للصداقة عليك حق؟

أجاب :

- وأي حق يا أخي ، ولكن . . .

أردفت :

- ولكن ماذا يا سفينة ؟ إنني أرى في قسمات وجهك أن الأمر أهم من أن يطوى بين صفحات كتاب .

أجاب :

- صدقت ، ولكن . . .

قلت :

- دع عنك لكن ، وقل لي من هو الكاتب؟

أجاب :

- هو ظالمي . . .

قلت :

- لا حول ولا قوة إلا بالله !

أكملت :

- وسلمى؟

قال :

- هي ظالمتي . . .

سألت :

- كيف؟

أجاب سفينة :

- كاتب الرسالة ظلمني بأخذ حقي ، وسلمى بجحد ودي .

قلت :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ! ومن يكون ظالمك هذا؟

قال :

- هو عمي .

سألت متعجباً :

- سبحان الله ! أو يَظْلِم عم ؟!

قال :

- يَظْلِمُ ويُظْلَمُ ، وقد عرفته ظالما . . .

كان عمي يصغر أبي بعشر سنين ، ولكنه كان دائم التطلع إلى ما عند أبي ، ولو أنه نظر إلى ما لديه من نعيم بعين الرضا لكفاه ، ولكن عين الحسد عليلة .

أما أبي فكان دمث الأخلاق ، كريم السجايا ؛ إن أعطى أغنى وإن عاهد أوفى .

كان أبي سيدا في قومه ، وقد عرفته رحيماً حليماً . ولكن قدر الله أن يموت ويتركني غلاماً . تغير حالنا وانقلب الزمان علينا ، مدبراً من بعد إقبال .

صار عمي يتلقف كل ما كان لدى أبي من نعيم الدنيا واحداً تلو الآخر ، اختبس كل شيء إلا محاسن الذكرى ، فقد ظل الناس يذكرون أبي بما يحمد .

لم يكتف عمي بما أخذ فاحتال حتى تزوج أمي ، وكانت

أمي سيـدة ثرية ، لديهـا من نفـيس الجـوهر ونادر الـحلي ما لا يعـد ، أخـذها جـميعـاً إلا خـاتما قـد أخفـتـه عنه ، يسـمى «خاتم المكنون» .

كانت أمي جميلة نضرة ، إذا نظرت إليَّ يسكن قلبي ، وإن سامرتني ينعم بالي . . . طلقة الـمحيا ، عبقة الـخطاب ، وقد عرفتها كريمة عزيزة ، ولكنها أمضت أكثر أيامها معه ، تتقي شره وتدفع عني أذاه .

قـدر الله في يوم نحس أن يكتـمل يتـمي ، فـمـاتت أمي وتركتني وحزني . مرت أيام لا أذكـر فيهـا إلا رحـمـة ربي بي ، ومـا أن دخل سن الشـبـاب ، حـتى دخل الحب إلى قلبي ، فأحببت امرأة يقال لهـا «سلمى» ، لم تكن أجمل النساء ولا أفصحـهن ، ولكن عين الحب لا تبـدي إلا المحاسـن ، أحببـتـها وأحبتني ، فطلبت من عـمي أن نتـقـدم لخطبتـهـا وافق عـمي وأشرقت الفرحة في قلبي ، ثم ذهب عمي إلى أبيها خاطباً . . . ولكن ليس لي . . .

بل خطبها لنفسه !!

سألت سلمى :

- سمعت يا سلمى . . . قاطعتني قائلة :

- ما سمعت يا سفينة إلا صدقاً .

قلت :

- أو ترضين به؟ أجابت :

- كل الرضا يا أخي !

الأسد والقرد

فبينما نحن في حديثنا ، إذا بسفينة يقول :

- انظر هذه غزالتها الذهبية !

تلفت . . . وفي لحة وجدت أن سفينة قد وثب من مكانه وأسرع نحو غزالة «هوى» وقد نسي حديث سلمى . سرنا نتبع تلك غزالة حتى أوصلتنا إلى خيمة ينبعث الضوء من داخلها .

وقف سفينة بجوار باب الخيمة لا ينظر بداخلها ، ثم سلم بصوت عال وانتظر لا يبرح مكانه . لم يجبه أحد ، قلت :

- يا سفينة الباب مفتوح .

ولم أنتظر رداً فدفعت برأسي من باب الخيمة ، لم أر أحداً فيها ، قلت لسفينة :

- هيا يا أخي !

دخلنا وجلسنا سويا ، وقد فرشت البسط البهية حولنا ، وصفت المساند بانتظام محكم ، حِسان وكأنها صنعت بالأمس ، والمصابيح ملئت بالزيت ،كأنها أشعلت لتوها ، ورائحة العود تفوح في أرجاء الخيمة . . . كان المكان يتلألأ بالوعد .

قال «سفينة» بعد أن استوى على أحد الفرش :

- وهل يحيا الإنسان إلا لمثل هذا اللقاء يا أخي سهل؟

وبقي مترقبا لمدخل الخيمة . . . طال الانتظار . . . ولا تزال عينا سفينة معلقة بالمدخل ، أما أنا فصرت أحصي المراكي ، ثم المصابيح وأدندن بقول الشاعر . . .

يا أخـــلاء قـــد مللت مكاني

وتذكـرت مـا مـضى من زمـاني

فبينما نحن على حالنا من الترقب ، وحالي أنا من الملل ، إذا بأسد عظيم يدخل من باب الخيمة ويخطو نحونا وهو ينظر إلينا بعينين يملأهما الزهو ، حاملاً على ظهره قرداً !

قلت :

- أنت على حق يا سفينة ، لا يحيا الإنسان إلا لمثل هذا اللقاء . وتمسكت بطرف ثوبي . . .

جلس الأسد العظيم أمامنا وبسط يديه ، ثم نزل القرد عن

ظهره وصار يقفز هنا وهناك ، وقلبي يقفز مثله من الخوف ، ثم تقدم ذلك القرد الخسيس نحونا ، نظر إلينا ثم بال على طرف السجادة التي فرشت تحتنا .

هنا استشاط سفينة غضباً ، ورأيت عينيه تشتعلان مثل الجمر .

فقلت :

- يا سفينة إنه قرد . . . قلت ذلك خوفاً من أن يفتك سفينة بالقرد فينزعج السبع . أجاب وقد فهم سبب إشفاقي على ذلك القرد اللعين :

- نعم يا سهل هو كذلك . . . ولا أخشى أنا أسدا صار مركباً لقرد .

ثم خرج سفينة من الخيمة دون أن يلتفت للأسد ، والأسد جالس على هيئته لا يتحرك ، حدثت نفسي :

«لعل سفينة لا يرى فيه إلا مركباً لقرد ، ولكن هذا لا ينفي أنه أسد ، فإن أفلت سفينة قد لا أنجو أنا» .

بقيت ساكناً أدعو ربي ، وحسونة بجانبي تقول :

- انظر يا سهل كيف يضرب الأرض بذيله !

خطر لي أنها تسخر مني ، ولكني بقيت صامتاً حتى

خرج ذلك الأسد من الخيمة بعدما اعتلى القرد ظهره وتبعتهم مسرعاً لألحق بسفينة ، فلم أجده .

دخلت إلى الدار أنتظره ، حتى مللت الانتظار فخرجت من الدار أبحث عن رفيقي الغائب .

مشيت صوب مكان يحيط به كثبان من الرمال ترتفع فيه التلال ثم تنخفض حيث تهوي رمالها ثم ترتفع عالية وهكذا . . . فكأن المكان هو بحر من الأمواج الساكنة .

سرت حتى سمعت صوت سفينة . أرهفت السمع ؛ لأعرف مكانه فوجدته يردد شعرا يقول :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

قلت له وقد اقتربت منه ولم يلتفت لقدومي :

- أتحاور الليل يا سفينة؟

أجاب :

- ترى أيحيا الليل كما نحيا ليسمعني؟

قلت :

- نعم والعجيب أن يكون في ظلمته حياته .

قال :

- لا أرى في وميض النجوم ، وبريق الأفلاك ، ولمعان القمر ظلاماً يا سهل !

قلت :

- أو ما يُظهر جمال ذلك إلا الظلام .

أجاب سفينة :

- نعم فلعل علة الظلام إظهار النور ، قد سمعتني أشكو طول ليل المضنى لا ظلمته ، نرافق الدجى حينا حتى يكشف لنا أنواره ، وللقلب ليل طويل ، ظلمته بُعد قد يبدي شوقاً ، وجلاؤه تمام المحبة . . . الشوق أحيانا يكون اكتشاف الظلام .

أردت مداعبته فقلت :

- أما أنا فلا أحادث الليل ، وما أرى فيه إلا وقتا للنوم والأحلام . . .

ابتسم سفينة وقال :

- وأي أحلام ترى في ليلك الأظلم يا سهل .

قلت :

- ذكرتني يا صديقي . . . وكيف لي أن أنسى . . .

سأل سفينة بتعجب :

- وبماذا ذكرتك؟

أجبت :

- بحلمي ليلة البارحة وما أزعجه من حلم ! إنه حلم طويل يا أخي لو أحكيه لك لربما مللت منه وعدت إلى محاورة ليلك .

قال سفينة :

- احك لي المنام وإن كان طويلا .

قلت :

- أفعل إن شاء الله .

فتاة الأحلام

بدأت بسرد حلمي وسفينة جالس أمامي قد وضع العمامة عن رأسه فظهر شعره الأبيض وقد صبغ بنور البدر الفضي ينظر إلي بعينين يلمع سوادهما كأنهما لؤلؤتان لم يسعني إلا أن سألته :

– يا سفينة كيف تبقي على شبابك ؟ فكأن عينيك لسانان لا ينطقان إلا ليبلغا عن فتوتك؟

ابتسم سفينة وقال :

– يا أخي أنت لا ترى إلا شيخا . . . ثم جعل ينشد :

كل يوم يمر يأخذ بعضي

يورث القلب حسرة ثم يمضي

هكذا تمضي أيامي فلو حكيت لي حلمك . . .

قلت :

- أفعل يا صديقي ، غالبني النعاس يا سفينة بعد أن صليت العشاء فنمت ، فرأيت أنني أسير في صحراء لم أخبر أفظع منها ، من شدة الحرارة تشققت الأرض ، وابيضت رمالها فصارت كالرماد الذي دُكَّ على سطحها ، أحسست بعطش شديد وكأني وقت ذاك قد حبست في ثوب عذاب ضيق على الرغم من الفضاء والفراغ الذي كنت أسير في ساحاته . . . فبينما أتفقد الصحراء من حولي ، إذا بي أرى فتاة تحمل إناء ماء صغيراً تغترف منه وترش الأرض هنا وهناك ، تسير يمينا ويساراً منحنية الظهر ، مستغرقة باهتمام شديد بعملها . تبعتها لفترة فما زالت تفعل ذلك .

من الهم لم أتمالك نفسي فقلت لها ساخراً :

- يا عزيزتي ما عسى هذا يفعل بهذا؟

سألتها وأنا أشير إلى إنائها الصغير ، ثم إلى القفر غير المتناهي الذي يحيط بنا .

أجابتني في الحال :

- والله يا رجل إنك لا تفهم شيئا !

ضحك سفينة بعد ما سمع مني ما قالته الفتاة ثم قال :

- ما كان لك أن تسخر من فتاة أحلامك يا «سهل» .

قلت :

- نعم يا سفينة ، ولكني أجبتها متأدبا ومعللا لعجبي :

«لعل ذلك يكون صدقا ، وإنما قطرات الماء تهلك قبل أن تلمس وجه الأرض » .

أكملت الفتاة :

- أتستهين بقطرات الماء هذه وتحسب أن عملي هراء لهوانه عليك . . .؟ أما تعرف يا رجل كم من قلب مُلئ حباً بلمحة عين ، وكم من تساؤل عظيم حوتها رفعة حاجب ، فبين ثانية وأختها تُخْلَق أشياء من عدم ، وتفنى أمور جلل . . .

تعجب من عملي هذا لصغره أم لسببه؟!

هنا قاطعني سفينة بحماس مسائلاً :

- والله لقد غلبتك الفتاة يا سهل ، فبماذا أجبتها؟

في الحقيقة يا سفينة لقد أجبتها بضيق شديد قلت لها بتأفف :

- أنا أعجب من عملك وكفى !

تابعت الفتاة عملها وحديثها :

- لم يمكنّي ربي أن أنزل الغيث ، ولا أن أفجر الينابيع وإنما

قد مكنني ربي من حمل هذا الإناء، والسير به في هذا القفر. تعال كي ترى كم من دابة قد أغيثت بقطرات الماء هذه التي تستخف بها، هلا نبشت سطح الأرض لترى عوالم من المخلوقات تكمن تحتها بانتظار غوثه. لعلك يا أخي تظن أن الأعمال تحسب أو تكال على قدر حجمها أو وزنها؟ يا رجل كم أمنية لعاجز رفعت إلى السماء فاستقبلتها الملائكة مستبشرين! وما هي إلا كلمات وحسرات، وكم من أعمال عظام لقادر جبار قد يَعْجَب البشر لها، ردت كي تقبع بخزي، دفينة في دنيا الغرور، والجهلاء يعجبون من عظم فعله...

ثم أخذت الفتاة بترتيل آيات بصوت عال سلس:

«فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون...»

وعندها أخذت تردد الآية :

«ويكأنه لا يفلح الكافرون . . .»

وبعد أن سكتت عن ترديد الآية التفتت نحوي وقالت :

- لا تبق هنا طويلا ، فإن غولا عظيما يخرج عند حلول الظلام .

سألت :

- وأين أذهب؟

أجابت :

- لا علي !

قلت :

- سبحان الله ! أنت التي ترحمين أهون الدواب ، تتركينني في هذا الخلاء . . . مع غول !!!

أعادت :

- لا علي !

وأسدلت خمارها على كل جسدها ، لفته حول نفسها واختفت كما يختفي السراب .

الغول الذي لا اسم له

قال سفينة : ما الذي فعلت يا سهل ؟ ليس لك إلا الفرار من منامك . . . ثم أضاف همساً : وكيف لنائم أن يفيق؟

قلت :

– النوم سلطان لم يكن بوسعي قهره ، كل ما فعلت يا أخي هو أنني صرت أتلفت حول نفسي عاجزا أردد :

– وما العمل الآن يا سهل؟ ما العمل؟ يا ليت أمّ سهل لم تلده ! ما الذي دعاني للخروج من داري وبلدي ، وترك أهلي وصحبي إلى هذه الصحراء الموحشة في انتظار غول؟

انطلقت أركض بحثا عن ملجأ قد يحميني من ذلك الغول قبل جنوح الليل ، ولكن دون جدوى ، فقد فرشت الأرض منبسطة كصفحة كتاب ، قلت : أن ليس لي إلا أن أحفر في

الأرض ، وأدفن نفسي ما أمكن حتى الصباح .

وبدأت بنبش الأرض الحارة الصلبة بقطعة حجر صغيرة حادة .

استغرق عملي هذا زمناً طويلاً . غربت الشمس وأنا مازلت أنبش الأرض الصلبة دون توان . وبينما كنت أحفر وأحدث نفسي ، سمعت صوتا يأتي من خلفي يقول بتنهد :

– أسألك بالله ما الذي تفعله يا رجل؟

أدرت ظهري نحو الصوت لأرى الغول متكئاً على يده مستلقياً على الأرض ، ينظر إلي بعينين مخيفتين . . . صرخت صرخة عاجز !

سأل سفينة بحماس :

– قتلك الغول يا سهل؟

أجبت :

– لعلك تمنيت لو أنه فعل وانتهيت من حلمي الطويل .

لا ، لم يفتك بي وإن كاد أن يقتلني خوفي ولكن الغول أغمض عينيه وقال بصوت هامس :

– أرجوك يا هذا لا تصرخ !

ثم أضاف :

– إذ صار الصراخ يزعجني .

ثم جلس .

انطلقت مسرعا كي أهرب منه ، زأر مثل مائة أسد ، فوقعت على الأرض ، وصحت :

– إنا لله وإنا إليه راجعون . . .

لا أدري كم مضى من زمن الرعب الذي عشته ، فكأنما عشت عمراً قبل أن يتكلم الغول ثانية ،قال بصوت منخفض كأنه يحدث نفسه :

– مللت والله يا هذا افتراس الكائنات . . .

بعد برهة قال :

– احك لي قصة . . . أو . . . أو . . . غن .

قاطعني سفينة ضاحكا :

– ما أعجب هذا الغول يا سهل ! أيمل غول مما فطر عليه؟!

قلت :

– يا سفينة لقد ألفت نفسي العجائب : أميرة تطلب المستحيل ، وأسد صار مطية لقرد ، وغول طروب ، وأما أنا فكل ما حضرني هو أن أسأله عن اسمه فقلت :

– جزاك الله خيراً . . . يا . . . يا . . . عذرا كيف أناديك؟

لطفاً ما اسمك؟

فكر الغول ملياً ثم أجابني :

– ليس لي اسم !

قلت :

– عجيب والله يا سيدي ! كيف لا يكون لك اسم وأنت القوي الذي يخشى ، والجسور الذي يفتك وقد ذاع صيت سطوتك ، حتى ملأ الدنيا؟ أسألك بالله مبدع الآلاء ومعلم الأسماء ، كيف لا يكون لمثلك اسم؟ دعنا نفكر الآن في اسم تدعى به ، لعل ذلك يكون فأل خير وبركة ، بعدما عزمت على ترك ما عهدت من ترويع الخلائق . . .

وما زلت أتحدث يا سفينة لا أدري ما أقول ومن أين أتى الكلام ، ولكن كان كل همي ألا يعود الغول إلى سالف عهده في افتراس الأحياء . . . والغول صامت مهموم .

ثم تابعت برفق :

– يا سيدي أنا لا أحسن الغناء ، قد أنساني الخوف حتى اسمي ، فإن سألتني الآن ما اسمك؟ أقول لك لا اسم لي ، مثلي في ذلك مثلك .

ذكرت ذلك اتقاء لغضبه ، فلعله يحنق عليَّ لو عرف أن لي

اسماً ثم أكملت :

- ولكن إن كنت قد مللت سابق فعلك ، فقد مللت حقاً ما يمل .

فما هي الغاية في افتراس الخلائق وترويع الدواب . . .

وأين مكان الأنس في حياتك؟ دعنا أولاً نهم في البحث عن اسم ترضاه .

سأل الغول :

- وكيف أجد اسماً؟

قلت :

- والله يا سيدي لا بد من البحث ! والأمر يحتاج إلى تمهل فالاسم صبغة يصبغ به المرء أو الغول ، فلا بد من التريث . . .

هنا قاطعني الغول :

- سألتك يا هذا كيف؟

وضرب الأرض بيده فاهتزت من تحتي .

أجبت في الحال :

- ضمران ، فراس ، نجم ، عايض ، كحلان . . .

ومازالت الأسماء تخرج من جوفي لا أدري كيف ولا كم ،

والغول مستغرق في التفكير . بدأت بالتلعثم من التعب ، ثم رفعت صوتي بشجاعة من سئم النجاة . . . وقلت :

– يا أخي ! لم لم يسمك أبوك؟!!

نطقت ثم أغمضت عيني في انتظار قضاء ربي ، فإذا بي أسمع نحيباً وبكاء مزعجاً ، قلت في نفسي :

– حقاً ما أبغض هذا الغول .

ولكنني تظاهرت بالحزن وصرت أقول وأنا مطأطئ الرأس :

– لا حول ولا قوة إلا بالله ! يا أخي ، هل مات أبوك؟

هز رأسه بأن «لا» .

أردفت برفق :

– هل هو مريض؟

هز رأسه بالنفي كذلك .

سألته :

– فما القصة إذاً؟

زاد نحيبه ولم يجبني ، تمنيت لو أنه افترسني ، وخلصني من هذا العذاب .

قال بعد ما مللت الانتظار :

– إن أبي محبوس .

قلت في نفسي «الحمد لله» ورفعت صوتي :

- بلا حول ولا قوة إلا بالله ! أين؟ وكيف حبس؟

قال :

- تعال معي يا رجل لترى بنفسك حاله .

تبسمت وسألت بلطف :

- أين نذهب؟

لم يجبني . . . تبعته في صمت حتى رأيت من بعيد نعامتين تعدوان نحونا ، ركب الغول إحداهما وأشار إليَّ أن : اركب !

قلت باندهاش :

- هذه؟

أعاد عليَّ :

- اركب !

فركبت النعامة ولا أدري كيف ، وانطلقنا في هذا القفر الممتد .

بعد زمن وصلنا إلى المكان الذي فيه أبو الغول الذي لا اسم له ، ونزلت من مركبي المزعج ، لأجد أبا الغول الذي لا اسم له ، جاثياً على ركبتيه يحفر في الرمال دون توان ، لم يرفع

رأسه نحونا ولم يكلمنا ، كأنه لم يرنا أو يسمعنا ، سألت رفيقي الغول الذي لا اسم له :

- ما يفعل أبوك؟

قال :

- إنه حبيس وهمه . . . فقد أضاع خاتماً في الرمال ، فيخيل له أنه يراه ، وما أن يلمحه حتى يفقده مرة أخرى ، فيحفر . . . فيظهر له ثانية ثم تبتلعه الرمال ، فيعاود الحفر . . . وهكذا ليل نهار لا يكلم أحداً ولا يرفع حتى رأسه .

سألت الغول الذي لا اسم له :

- وما هذا الخاتم الذي يتوهم أبوك ضياعه؟

فأجاب :

- لم يتوهم ضياعه فقد أضاعه فعلا . إنه «خاتم المكنون»!

فبهذا الخاتم يمكن لنا اكتشاف الكنوز المدفونة تحت سطح الأرض ، فإن مررنا من فوق مكانها المكفور في بطن الأرض يلمع فص هذا الخاتم ، فنعرف مكان الكنز المخفي . . .

قلت بلطف :

- اسمح لي أسألك سؤالا يجول بخاطري الآن ، وأرجو ألا تحسب سؤالي هذا من سوء الأدب ـ معاذ الله ـ وإنما هو من

باب الفضول . ما يفعل غول بكنز؟

لم يجب الغـول الذي لا اسم له على سـؤالي هذا الذي وجدته صائبا بل قال :

- منذ زمن بعـيـد سـرق أبي من «أم الرمـال» هذا الخـاتم الغـريـب ، وهي وحـدها التي كـان لهـا أن تعـرف الأسـرار التي يضمها قلب الصحراء .

قلت :

- لعل الخاتم قد أعيد إلى صاحبته؟ ومن هي «أم الرمال» هذه؟ وهل يمكنني الذهاب إلى حيث هي كي أسألها عن أمر الخاتم؟

قال الغول الذي لا اسم له :

- هي تسكن خلف جبل اللوز الذي يمتد من تحته واحة عظيمة ، تملؤها أشجار النخيل والينابيع الحلوة . . .

أم الرمال

أفقت من حلمي يا سفينة وأنا أستغفر الله وأحمده ، فقد أحسست أنني قد عمرت سنين في غفوتي القصيرة هذه ، حتى خيل لي أنه لا حياة دون الحلم الذي كنت أعيشه ، إلى أن نبهني صوت كلب يعوي في الخلاء ، الناس يا صديقي نيام ، فإن ماتوا انتبهوا ، كما قال علي كرم الله وجهه .

بعدما انتهيت من سرد حلمي الطويل وجدت سفينة صامتا مهموما فقلت له :

- ما بك يا أخي؟

أجاب :

- هو خاتم أمي !

قلت :

- لعله هو فلنذهب إلى حيث «أم الرمال» ونسألها عن أمر هذا الخاتم فلربما أعادته إليك كي تظهر الكنوز المدفونة في التراب .

قال سفينة :

- لن أسألها عن شيء لم يقسم لي . الكنوز ما تحفظه صدور الورى لا ما تخفيه قبور الثرى .

سكتُّ فقد عرفت عزمه على الزهد في خاتم أمه ، ولكني طلبت منه أن يرافقني إلى حيث تكون أم الرمال فقبل . بعدها خرجنا للبحث عن «أم الرمال» حيث أشار لي الغول الذي لا اسم له .

كنت قد حدثتكم عن قصتي العجيبة وقَدَرِ الله الساري الذي أوصلني إلى كل من أميرة الظلال رقيقة الظل ، وحسونة السلحفاة الحكيمة ، وسفينة ذي المروءة بعد أن خرجت بحثا عن مدينة العلم .

يا صحب حقاً لا يعرف الحب إلا صاحب المروءة فلا يجمع الله في قلب واحد حباً ولؤماً ، فالمروءة للحب كالصدى الذي يناجي الصوت ، وكالظل الذي يتبع الجسد ، وكأني بأهل هذا الزمان قد نسوا ذكر المروءة حتى أضاعوه لفظاً وخلقاً . فما

أقل ما يوصف السيد اليوم بأنه صاحب مروءة .

يذكرني هذا كله بقصة مسجد «كأني أكلت» ، وإلى «هوى» الأخاذة وأختها الحمقاء «هلباجة» التي أوقعت بنا ، على الرغم من حماقتها فقد نظرنا إليها بأعين كان لا بد لنا أن نبصر بها ، ولكن نجونا بفضل لطائف صنع الله جل عمن سواه .

والآن تحملني الأشجان إلى من عرفتها فيما بعد بأم الرمال .

خرجت وسفينة وحسونة ، فسرنا إلى حيث أم الرمال لنجدها كما ظننا تجلس في واحة عظيمة يظهر بجانبها جبل اللوز وتعلوها أشجار نخيل شامخة وقد تدلى منها البلح كأنه الذهب لشدة اصفراره ، نادت علينا :

– تفضلوا ضيوفاً مكرمين .

عندما اقتربنا منها قالت :

– وهل أتيتم لتروا عين الطاووس؟

قبل أن يجيب أحدنا قلت :

– نعم . . .

نظر إلي سفينة بدهشة وهمس في أذني :

- والله إنك لَعَجِلٌ يا سهل .

قالت «أم الرمال» :

- تعال يا هذا وقل لي ، لماذا تريد رؤيته؟

قلت في نفسي :

- ورطة !

تقدمت إليها فوجدت أنها قد لفت رأسها بعمامة خمرية اللون ، وعلى كتفيها تدلت ست ضفائر بيضاء .

قلت :

- سيدتي أردت أن أعرف لم سُميت هذه العين بعين الطاووس؟

نظرت إلي وضحكت ثم أجابت :

- لأن لون مائها أزرق فاقع يشبه لون الطاووس وتحيط به أعشاب خضراء تشبه ريش الطاووس . أنتم لم تأتوا لتروا عين الطاووس الذهبي الذي خرج إلى الدنيا يتبختر كالعروس في كامل حسنها ، ذلك الطاووس الذي رُسم بفرشاة الجن ، ولُون ريشه بآلاف الألوان ، وإن بكى فدموعه تطفئ نار الجحيم . . .

قلت في نفسي : الحمد لله لقد أصاب حدسي ، فالعين

هي عين ماء .

ثم سألت «أم الرمال» :

– ما الذي تفعلين؟

فقد أخذت تخرج خيطا رفيعا من صندوق ، ثم بدأت تربط ذلك الخيط بين عصوين من فضة قد ثبتتا في الأرض أمامها .

أجابت :

– هذا لا يعنيك . . . اذهب إلى حيث العين التي أتيت من أجلها . . .

قالت ذلك وهي تشير بيدها نحو مكان العين .

قمت وذهبت مع صحبي إلى حيث أشارت دون نقاش . جلس رفقائي من حول هذه العين البديعة يشربون من مائها النقي .

وعدت أنا مسرعاً إلى أم الرمال .

وجدت أنها بعد ما سحبت الخيط وشدته بين الغصنين ، أخذت حفنة من تراب وهمست في التراب :

– هذه هي الأماني . . .

ثم وضعت التراب على جزء من ذلك الخيط ، فنزل التراب

إلى الأرض في كومة صغيرة والحبل مشدود من فوقه ، ثم أخذت حفنة أخرى وهمست :

- هذه هي الأحلام . . .

فسقط التراب في كومة أخرى تحت الخيط ، ثم أخذت حفنة ثالثة وقالت :

- وهذا هو المال ، بعدها . . . أخذت تعد كلا من العافية ، والأولاد ، والزينة ، والشباب . . .

وأنا أنظر إليها دون أن تراني أو كذلك ظننت .

بعد ما فرغت قالت :

- أما لو عرف البشر ما أهون هذه الآمال وما أسرع نفادها ! فما هي إلا قيد من وهم .

ثم التفتت نحوي وأشارت إلي بأن أخرج من مخبئي وسألتني :

- أتعرف ما هذا الخيط الذي تقع عليه كل تلك الأشياء؟

قلت :

- لا والله ! فأنا أجهل من مشى على الثرى .

التفتت ونظرت إليّ فأطالت النظر ، وأحسست بانزعاج يصحبه فضول ، ولكني بقيت صامتاً ساكناً حتى قالت :

– هذا الخيط هو عمر الإنسان . . . طوق من الرمال إن أراد ، أو عقد من الجوهر الباقي إن أراد . الخيط لا يتبدل ولكن العبرة فيما يحمله ، أو ما لا يحمله يا سهل . . . تعال خذ ما سوف يفنى أيضا ، خذ حامل الأوهام هذا ، خذ خيط العمر ، تعال . . .

ثم أضافت مبتسمة :

ـ ترى هل بقي من أثر في طوق عمرك؟

قمت لآخذ الطوق ، فرفعت «أم الرمال» يدها وقالت :

ـ مهلاً ! قبل أن أعطيك إياه ، قل لي ما الشيء الذي لم أذكره وينقص طوقي هذا حتى يكتمل؟ هذا الطوق الذي أتيت من أجله .

فكرت فيما ذكرت من عمر الإنسان وما يحمل هذا العمر من أمان وأيام . . . فما الذي يظهر هذا كله؟! أما يكون الزمن ، تلك الثواني والسنون التي بمرورها تنكشف لنا حقيقة الأشياء ، فالشباب يصبح شيبة ، والقوة ضعفا ، والجهل علما ، أو بالعكس ، فهو الذي يبدل الأحوال .

أجبتها :

– هو الزمن يا «أم الرمال» .

قالت :

- نعم ، هو الزمن الذي ينقضي به العمر ، ويظهر نقص كل شيء ؛ فتفنى أمور ظننتَ أنها لا تفنى . . . أمد الأشياء دلالة قيمتها .

فبين اللحظة وسرمد يحيا الإنسان . . . خذ الآن طوق الرمال هذا إلى أميرتك . . . ولكن قبل أن تذهب قل لي ، كيف اهتديت إلي وعرفت مكاني؟

أجبتها :

- سأفعل سيدتي .

وبدأت قصتي بعد ما أحكمت جلستي بجوارها . . .

مسجد كأني أكلت

بعدما عرفت من الظمأ أقصاه ، ومن الخوف أنكاه ، في حلمي الذي دلني على مكان أم الرمال ، تركتها حاملاً معي ؛ مداداً من دخان ورسائل من هوى ، وطوقاً من رمال . وقررت أن أهم في محاولة إيجاد آخر ما تريد سيدتي ، أميرة الظلال ، ألا وهو قصور الماء . . . واستبشرت بقرب الحصول على جميع ما تريد ، ولكن بقي شيء واحد أهمني ، ظل شامخاً أمامي كنصب أصم نقش على جبينه «المستحيل»! ذلك الأمر هو كيف أجد قصور الماء هذه ، وأين؟

فبينما أفكر في كيف ، وأين؟ إذا أنا في قرية صغيرة ، واقفا أمام مسجد لطيف غاية في الصغر ، بابه أخضر اللون ، وعلى الرغم من صغر ذلك المسجد كان بديع الصنع كأنه جوهرة قد

نسيها الزمن في هذا المكان النائي ، دخلت مسرعاً لأصلي الظهر مع جماعة الـمصلين .

عندما انقضت الصلاة ، استدار الإمام ، وقد كان شاباً جميل الطلعة صبوح الوجه ، التفت نحوي بعدما انفض المصلون وقال :

- السلام عليك يا أخي .

جعلت أتفحص رداءه البسيط وعمامته التي لفت رأسه بإحكام ، ثم استرعى انتباهي خاتم دقيق الصنع في خنصره ، فعجبت كيف يكون مثل هذا الخاتم مع هذا الرجل البسيط .

ثم أجبته :

- وعليك السلام ورحمة الله .

اقتربت منه لأسأله عن أمر النحت الذي ظهر عند مدخل المسجد ، وفيه اسم المسجد ، قلت :

- يا شيخ هذا هو مسجد . . .

صمتُّ هنيهة ، ثم أضفت متعجباً :

- «كأني أكلت» !!؟

قال :

- نعم .

قلت :

– المساجد لا تسمى بمثل هذه الأسماء !

قال :

– لا تستغرب اسمه حتى تسمع قصته .

سألت الشاب الإمام :

– وما قصته؟

قال :

– كان يسكن في هذه القرية رجل فقير ـ وكلنا فقراء ـ ولكنه كان أفقر أهل هذه القرية ، فقد كان يكسب قوته من صنع الأختام ، ولعلك رأيت أنه ليس لأهل مثل هذه القرية حاجة ماسة للأختام ، فكانت تمر السنة دون أن يصنع أكثر من ختمين أو ثلاثة . نصحه الأهل والأصدقاء بتغيير صنعته هذه ، ولكنه أبى وقال : «لن أعيش إلا من فضل صنعتي التي أورثني إياها أبي» .

وإن كان أبوه في بادئ أمره ، من سكان مدينة تعج بالأعمال والتجارة . وكان يقول لكل من أسدى إليه النصح بترك صنعة أبيه ، والتقوت من شيء آخر : «صانع الأختام ينقش الجوهر ، ولا يحفر في الطين » . . .قاصداً بذلك حرث

الأرض للزراعة .

ولكن بعد زمن ، تملك قلبه أمل واحد ، وصار كل ما كان يتمناه من دنياه ، هو أن يبني مسجداً ، ولكن أين المال ليحقق هذا؟ و لو أنه أراد تغيير صنعته بعد مرور كل هذه السنين لما أمكنه ذلك .

صار أهل القرية يمازحونه ويقولون :

ـ يا حاج ، إلى أين وصل مسجدك؟ وهل تحتاج لمؤذن؟

وما إلى ذلك من استخفاف ، فيبتسم الرجل ويهز رأسه ويقول :

- ليس بعد .

في يوم من الأيام أخرج من كمه صرة فيها ذهب ، وقال :

- اليوم بني المسجد .

عرف فيما بعد أنه قد جمع هذا المال من الحرمان ، فقد كان يشتري في كل يوم زاده ؛ وهو قطعة من الجبن ، ورغيف من الخبز ليأكل ، فكان يضع قطعة الجبن في بلورة بدلاً من شراء قطعة جبن كل يوم ، وعندما كان يجوع ، يأخذ الخبز ويمسح على سطح البلورة التي بها قطعة الجبن ويقول :

«كأني أكلت» بعدها يضع مال الجبن جانباً . حتى جمع

ما يبني به مسجده هذا الصغير ، ومات . . .

فقرر أهل القرية أن يسموا مسجده بمسجد «كأني أكلت» .

قلت :

- ما أرق قصته وأجملها . . . حسبي أنه مات من الجوع؟

أجاب الإمام الشاب :

- ربما؟

ثم سألته :

- ما اسم هذا الرجل؟

قال :

- لا يذكر أحد ، فمنهم من يقول إن اسمه حسن ، وآخرون يقولون إن اسمه سعيد ، وبين حسن وسعيد أسماء كثيرة ، ولكن ما فعله لا يُنسى ، هذا هو حال الدنيا يا أخي ، إذ لا تعرف الناس إلا بأفعالهم ، فكأن الزمان يكنيهم بها فيقال :

هذا باني بغداد ، وذلك كاتب الموطأ ، وهذا شاعر العشق ، وذاك فاتح القسطنطينية . . . انظر بماذا يا ترى سنعرف نحن؟

قلت :

- والله يا إمام ما أحسنك وما أحسن قصصك ، ولكن أخبرني هلا سمعت بمدينة العلم التي خرجت بحثاً عنها ،

وأوصلتني المقادير إلى مسجدكم هذا الطيب؟

أجاب الإمام الصبوح :

- نعم ، أعرف من يدلك على مدينة العلم التي تبحث عنها .

قلت :

- بشرى يا سيدي ، لعل الزمان يكنيك بإمام السعد والهناء ، وأين أجد ذلك الرجل؟

أجاب الإمام :

- إنه ليس برجل .

قلت :

- كيف ؟ وما يكون إذا؟

قال :

- دليلك درة . . .

قلت :

- سيدي رفقاً ! لقد طار مني الأمل الآن ! قد حسبتك والله رجلاً عاقلاً . السلام . . .

وخرجت من ذلك المكان مسرعا أردد :

- درة !! سبحان الله! يقول درة . . . وكيف تكون الدرة دليلة؟

قصور الماء

بينما أنا سائر في طريق دون معالم ، وجدت بركة عظيمة تمتد على طول قصر بديع ، له بوابة عالية كتب عليها بنقش عريض ، الآية :

«كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» .

جلست على طرف هذه البركة أتأمل القصر أمامي وبوابته البديعة وصرت أردد في نفسي :

ما أجمل هذا الكلام ! وما أروع هذا القصر !

ثم أدرت ظهري للقصر ، ووقفت أنظر إلى البركة ، فكأنما فرش هذا القصر العظيم أمامي على سطحها الساكن ، قلت : سبحان الله كأنه هو ، أكاد أعدو نحوه وأدخل من بابه ، والأعجب أنني تمكنت من قراءة الآية نفسها ، فلم يعكس

الخيال أحرفها :

«كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»

بقيت طويلاً أنظر إلى هذه البركة ، وصورة القصر المنعكس على مائها ، فبينما أنا متأمل هذا المنظر ، إذا بطفلة تخرج من باب القصر الذي هو من خلفي ، ثم تقف بجواري حاملة غصن شجرة مكللا بالزهور الصفراء ، تبسمت ثم أخذت تطرق بيدها صورة باب القصر المنعكسة على سطح الماء وتضحك ، تناثر الماء واختفى الباب ، فكأن الأمواج الضئيلة التي أحدثها دق يدها الصغيرة ، قد ابتلعت بهاءه اللامع ، ثم سحبت الغصن المكلل برفق من فوق سطح الماء ، فتكسرت صورة ذلك القصر برمته واهتز كياني الساكن دون أن أعرف لماذا؟

رفعت الطفلة رأسها إلي وقالت :

- أرأيت يا سهل ما أهون قصور الماء . . . لعلك حسبت أنه حقيقة؟ أم ترى . . . سحرك الخيال؟

سألت ما اسمك يا فتاة :

أجابت :

- أنا التي إذا نظرت إليها سرتك ، أنا سرور الروح وسارة الحياة .

عد إلى أميرتك وأخبرها عن قصور الماء . . .

ولكن قبل أن تذهب ، دعني أحكي لك قصة الفتاة اللطيفة سهى ، والصَدَفة المحروسة نعمة .

قلت :

- بكل سرور يا سارة القلب .

جلسنا سوياً تحت ظل شجرة رقيقة مثل محدثتي سيدتي الصغيرة سارة ، من آن لآخر كانت تهوي زهرة من تلك الشجرة الزاهية ، التي ظلتنا بحجاب زهور بيضاء ، لتستقر في حجر محدثتي .

بدأت سيدتي الصغيرة بالكلام . . .

كان في زمن قديم صَدَفة جميلة اسمها «نعمة» ، كانت هذه الصدفة تسكن في أعمق مكان من البحر . أتت إلى هذا المكان البعيد العميق من شاطئها الضحل ، حتى تبقى بقرب حبيبها الحوت الأزرق «نون» ، وقصتهما سوف أحكيها لك ، لو شاء القدر لقاء آخر بيننا بعد اليوم . . .

أما عن قصة الفتاة اللطيفة سهى ، التي كانت تسكن في طرف السماء الشرقي ، المحاط بسحب فضية وذهبية . لم تكن تلك السحب بهذا الشكل في أول الأمر ، ولكن منذ أن

سكنت بينهم الفتاة اللطيفة سهى ، أمرت السحب بأن تحبس الأنوار داخلها . الفضية حبست ضوء قمرالليل ، والذهبية حبست ضوء شمس الصباح ، وصارت السحب تشتعل وتتلألأ بهذه الأنوار المحبوسة ، طوال الليل والنهار . . . والفتاة اللطيفة سهى تسكن بينهم غير مبالية !

يقولون ياسهل إن الفتاة اللطيفة سهى ، كانت تسير بين الأفلاك فتسدل شعرها الطويل ، فتسحب معها النجوم التي تناثرت وتعلقت بين خصلات شعرها المسبولة . . . أما الفتاة اللطيفة سهى ، فكانت تسير بين تلك الأفلاك غير مبالية !

ويقولون يا صاحبي إنها ذهبت ذات يوم للتنزه في غابات عظيمة ، قد غطتها أشجار بهيجة ملأتها طيور لونت بكل ألوان الحقيقة والخيال ، وقد كسى ربوع تلك الغابات ، زهور بهية كانت تتمايل مع النسيم ، وترسل عطرها ليعم أرجاء هذا المكان البديع .

أمرت الفتاة اللطيفة سهى كل الطيور أن تغنى بنغم واحد ، ثم أمرت النسيم أن يهز أوراق الشجر بحفيف واحد ، ثم مرت هي بهذه الغابة الغراء غير مبالية !

استغرب الطير الأخضر ورفاقه من الطيور حال هذه الفتاة ، وقرروا أن يعرفوا سبب غيابها عن هذا النعيم .

وللطير الأخضر هذا قصة عجيبة ، سوف أحكيها لك إن جمع الزمان بيننا . . .

تقدم الطير الأخضر وقال : دعونا نذهب إلى الحوت الأزرق «نون» ، الذي يكشف عن كل مكنون ، ليعرفنا بسر حقيقة هذه الفتاة . . .

عندما اجتمعت الطيور ، على ظهر الحوت الأزرق «نون» وحدثوه بأمر الفتاة اللطيفة سهى ، قال : خذوا الصَدَفة المحروسة «نعمة» لها ، ليعرف المكنونُ المكنونَ .

تعجب الجميع من قول الحوت الأزرق ، ولكن لم يفصح أحد عن عجبه ، وحمل الطير الأخضر الصدفة المحروسة نعمة في منقاره الذهبي ، ووضعها في حجر الفتاة اللطيفة سهى .

عندما كانت الصدفة «نعمة» تفتح شقيها يا سهل ، مثلما يفتح أي منا كتاباً وتظهر مكنونها ، يرى المشاهد أن داخلها مصقول يلمع كالمرآة .

حملتها سهى ، بين يديها الرقيقتين ثم نظرت لترى ما بداخل الصَدَفة «نعمة» هذه ، فانعكس وجهها على سطح الصَدَفة نعمة ، ورأت ما لم تكن تعرفه في نفسها من قبل . . . رأت الجمال بأبهى صُوَرِة !

ولا عجب في ذلك ، فكل من كان يرى الفتاة اللطيفة سهى ، يعرف أنها جميلة . لكنها ، كانت ترى الجمال من حولها دون أن تعيه أو تعرفه ، فعندما رأت وجهها لأول مرة دهشت ، لأنها وجدت أن الحسن شيء تحمله . عرفت الجمال في نفسها ، فتبينته حولها فكأنما قلبها قد سمع أبجدية الحسن لأول مرة ، وصار بإمكانه أن يحاور كل ما هو حسن . ولم تمر بجمال بعد يومها هذا ولقائها بالصَدَفَة المحروسة «نعمة» دون أن يشدو قلبها لآيات الحسن .

أما الصَدَفة ، فقد طلبت من الطير الأخضر أن يعيدها إلى أعماق البحار ، حيث حبيبها الحوت الأزرق «نون» .

توقفت سارة عن سرد قصتها وقالت لي :

– أتعرف يا سهل أننا لا نحسن النظر إلا بالقلب . فالموجود ما كان بالقلب ، وما دونه عدم وإن اكتمل بهاؤه ، فلا بهجة دون رضا ، ولا يقين دون حقيقة تشرق في الفؤاد .

– ولا نحسن السمع إلا به أيضا يا سيدتي الصغيرة .

أضفت وأنا متعجب لحكمة هذه الفتاه .

أردفت تسأل :

– أترنو لشيء هو دونك يا سهل؟ هل الأحلام تنبت في

بستان مروءتك ، أم في حقل رغباتك؟

إنك لم تحب بعد يا سهل؟ فلعل ما تقتنصه في أيامك ليس إلا الغرور ، أما تعرف أن المرء بين شيئين : إما أن يقتل فريسته أو أن يفقدها ، فإن قتلها ما أتعسه ، وإن فقدها ما أضيعه .

لا يقتنص المرء إلا ما يخيل إليه أنه دونه ، فلا تقتنص من عمرك الغرور ، ولا تتبع إلا ما ترتضيه مروءتك .

يا سهل اترك أوهام نفسك إلى أنوار قلبك ، حتى تعرف يوما معنى :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي
وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

إن أردت أن تبني لك قصراً ، فاعرف أن البناء الحقيقي لا يكون إلا بعمارة القلب . المرء الذي يعرف نفسه لا يبحث عن قصور ماء .

قامت محدثتي فجأة وقالت :

ـ اتبعني يا سهل . . .

بحر السعير

سرت معها حتى وصلنا إلى مكان يبعد بقليل عن قصور الماء ، ثم أخرجت من جيبها حصاتين صغيرتين ، جعلت تدق إحداهما على الأخرى ، حتى خرج شرر أزرق من بينهما ، ثم انساب هذا الشرر فصار مثل ينبوع لهب أزرق ، وزاد هذا الينبوع الملتهب حتى امتد نهراً من نار ، ثم بحراً ملأ الأفق سعيراً . وأنا لا أبرح مكاني .

قالت :

- انظر إلى هذا البحر من اللهب يا سهل ، أين مركب نجاتك؟

ابحث عن درة العرفان في هذا البحر ، ولكن عليك أولاً أن تعرف اسم البحر كي تأمن شر حارسه .

قلت :

– سيدتي الصغيرة . . . من قال لك إنني أريد اجتياز هذا البحر أو معرفة اسمه ، ثم أضفت :

– أنا لا أستحسن من الجوهر الدر ، ولي رغبة شديدة للرجوع إلى حيث قصور الماء في التو والحال .

انطلقت ولم ألتفت خلفي تاركاً تلك الفتاة العجيبة وبحرها المستعر دون أسف . قلت في نفسي مركب نجاتك يا سهل البعد عنهما ، يا منجي يونس من الحوت ، نجني من أفعال هذه الفتاة . رحت أبحث عن قصر الماء الذي خلفت ، فلم أجد شيئاً . . .

ووجدت نفسي بعد بحث طويل ، واقفاً أمام شاطئ ذلك البحر المستعر مرة أخرى ، دون أن أعي كيف وصلت إليه .

كنت قد تعلمت من الأيام التي خلت ألا أصارع القدر ، فجلست أبكي على هذا الشاطئ لا أفارقه ، حتى علا نحيبي وأنا لا أبالي . تمنيت أن يترك لي يوم واحد أنعم فيه بالرتابة والملل ، فقد سئمت نفسي تواتر الأحداث . جلست طويلاً أنظر إلى ذلك البحر ، ثم أخرجت «حسونة» من كيس كنت أربطه في إزار أحملها فيه ، وقلت لها :

- يا حسونة إن صاحبك لا يحسن السباحة في الجحيم، أو الغوص في بحور العجائب، فما العمل الآن؟

أجابت حسونة :

- لعله لا يكون بحراً .

قلت غاضبا :

- وما يكون إذا؟

قالت حسونة :

- لعله وهم؟ استفت قلبك يا سهل، فقد ضاقت بك السبل وانحسر عنك المأمن، فلم يبق لك إلا تجنب الخوف للنجاة منه .

قلت وقد استشطت غضباً :

- والله قلبي لا يحدثني اليوم ! ولكن عقلي يقول إن هذا بحر الهلاك .

قمت أبحث ثانية عن سبيل يبعدني عن هذا البحر، وفي كل مرة أجد أن الطريق يعيدني إلى شاطئه . وضعت يدي على شجرة، وطأطأت رأسي ثم قلت لحسونة بتجهم :

- وهذه ليست بشجرة، أليس كذلك؟ وأنا لست بسهل، وأنت لست بحسونة، واليوم يوم عرسي، والزمان ليس بساعات

وسنين ، والمطر ليس بماء ، والنسيم ليس بهواء !!

أجابت حسونة بكل هدوء :

- نعم يا سهل ، قد تكون هذه الشجرة ظلاً وعشاً ، وقد تكون أنت عبرة يعتبر منها البشر ، وقد أكون من آلاء الله التي يمتحن بها الناس ، وقد يكون اليوم هو لقاء ، والوقت هو النور يزداد وينقص ، وقد يكون المطر عذاباً ، والنسيم رحمة مهداة .

ثم أضافت :

- وربما نكون نحن الاثنين على حق ولكن يا صديقي ، الغضب لن يشفي توهمك .

قلت وأنا أشير إلى البحر :

- هذا ليس بوهم !

سألت حسونه مستنكرة :

- يا سهل هل يعقل أن تخلق طفلة صغيرة ، بحراً مستعراً يخيفك؟

قلت :

- نعم ، إنها فعلت ! وأسألك بالله يا حسونة ، هل يعقل أن أحادث سلحفاة مثلك ؟

قالت حسونة :

- ربما؟

حملني غضبي إلى ترك حسونة ، فأسرعت إلى حيث انتهى بي المطاف ، لأجد نفسي في المكان الذي تركت ، واقفاً أمام شاطئ السعير ، فجلست متأملاً له . فإذ بحسونة لحقت بي حيث وصلت فقلت لها وقد خبا غيظي :

- لو أن سفينة معنا . . .

قالت حسونة :

- لعله يكون هو مركب نجاتك يا سهل .

قلت بدهشة :

- سفينة؟! نعم لعله كذلك ، ولكن كيف؟ وأين هو منا اليوم؟

بقيت في هذا المكان الذي لا نجاة منه ، وخطر في بالي قصة الغول حبيس وهمه ، ولكن سرعان ما دفعت عن نفسي هذه الأفكار ، وصرت أبحث عن حسونة ؛ فقد غابت عني زمناً أمسيت فيه وحيداً .

قلت : ليتني لم أقس عليها في القول ، وألفظ بما جال في نفسي . يا ليت حسونة هنا . . . وصرت أفكر في خيرها واستئناسي بها ، وصدق رفقتها وإصابة نصحها ، فقد عظمت

في نفسي وزانت في نظري حتى نسيت هذا البحر الذي يموج بالأهوال من أمامي ، جعلت أفكر في حسونة مما زاد غمي وحزني .

السعداء

بعد زمن طال بي ، سمعت ذلك الصوت الجهور الجميل ، صوت سفينة وهو يتنحنح ، نظرت فرأيت أسعد مشهد إلى قلبي في ذلك الوقت ، رأيت سفينة يخطو نحوي بمشيته الثابتة ، التي تدب على الأرض وكأنه مركب عظيم تسيره الأمواج بأمر من خالقها ، يميل يميناً ويساراً ، يمشي وكأنه ينحدر من جبل . لابد وأن لهف نفسي قد انعكس على صفحات وجهي ، نظر إليّ سفينة وصار يضحك ، فتبعته بالضحك ، ثم قال :

- ما الذي أوصلك إلى هذا المكان؟!

أجبته :

- كيف أتيتني؟

قال وهو يشير إلى قدميه :

- هما حملتاني ، وهي دلتني . . . ضحك ، ونظرت فإذا بحسونة تسير بين قدميه ، قلت :

- يا حسونة والله إنه كما قيل ليس لك إذا حضرت عديل ، وإن غبت ليس لك بديل .

أجابت حسونة :

- يا سهل قد تركتك مهموماً ، والهم حبس الروح وقمت أبحث عن سفينة ، فنسيت أن أخبرك .

جلسنا سوياً بجوار بحر السعير ، وعلى شدة سعادتنا باللقاء لم يجر بيننا حديث ، وطال في هذا المكان صمتنا . كنت أسترجع الماضي ، وما أسهل رجوعي إليه في مثل هذا الوقت ، الذي كشف لي الحاضر يأس حالي ، فأبيت أن أعيش فيه وبقيت بائساً أجوب زمنا آخر ، وذلك جهلاً مني أن كنا حسبما تبين لي فيما بعد ، جالسين على حافة الفرج ، فبينما أصارع الأفكار ، إذا بسفينة يقول :

كـــذا قـــضى الله فكيف أصنع

الصـــمت إن ضـــاق الكلام أوسع

قلت :

- يا سفينة ما الذي ضيقه عليك ، وأنت قادر على أن تخرج من هذا المكان ، وتعود إليه بحسب هوى بالك؟

أجاب :

- وكيف يا سهل لا يضيق وأنا أجدك فيه محاصراً بعجزك؟ ولكن قل لي ما الذي يجول بخاطرك الآن؟

أجبت :

- الحمد لله بادي الكرم ظاهر النعم ، أفكر يا صاحبي بأبي الذي رباني . . . وقبل أن أكمل قاطعني سفينة متسائلا :

- أبوك الذي رباك؟!

قلت له :

- نعم ، لقد كان حارساً لمسجد عظيم في مدينتنا ، والمدينة كانت تزهو بكل ترف ، وتزخر بكل ما تجود به النعمة على أهل هذه الدنيا ، يأتي إليها الناس من كل أرجاء المعمورة ، ويخرجون منها إلى وجهتهم محملين بالزاد والمتاع والعلم . والمسجد الذي تربيت فيه كان المَعِين الذي يستقى منه طلاب العلم في مدينتنا العامرة ومن يأتي إليها .

- ولم لم يربك أبوك ؟ سألت حسونة وهي تقترب مني ببطء السلحفاة المعهود .

أجبت حسونة :

- حدثني أبي الذي رباني يا حسونة ، قال : إنه كان قد خرج إلى السوق ليشتري شيئاً ، لعله قطعة قماش ليصنع له ثوباً جديداً ، فقد كان ذلك في آخر أيام رمضان ، التي تملأ فيها الأسواق بكل جديد وبهيج ، وتزدان متاجر المدينة استعداداً لاستقبال عيد الفطر المبارك ، أو أنه كان قد خرج إلى السوق لكي يحدث أبا سالم الخزاف ، في أمر جرة ماء أخذها منه ووجد بها شقاً . . . المهم أنه في خضم هذا الحشد الكبير من أهل السوق الذين يروحون ويجيئون ، وينادون بأصوات عالية على بضاعتهم ، ناهيك بأصوات الدواب . التفت ليجد طفلاً صغيراً صامتاً ساكناً معلقاً بطرف ثوبه ، ينظر إليه بعينين واسعتين ، لم يفلت طرف ذلك الثوب ، ولم يقو أبي الذي رباني على نزع يده الضعيفة . وقد تبعه الطفل إلى مسجده الذي كان يسكن به . طال بحثه عمن يكفلني ، أو عن أهلي الذين أضاعوني . وقدر لي أن أبقى عنده في ذلك المسجد العظيم ، لا أعرف لي أهلاً سواه . كنت طفلاً هادئ الطبع ، إن وُضع أمامي طعام أكلت ما يوضع من زاد وحمدت الله ، ولا أطلب أكثر ، وعندما يأتي وقت النوم ، يرفعني أبي على سريره

في حجرته فأنام ، وإن كانت الليلة باردة لا أنطق بما قد يزعج أبي ، حتى يتنبه ويلفني برداء غليظ كان يحفظه ويلبسه في كل عيد . كانت الحجرة الصغيرة التي تربيت بها داخل المسجد لها باب صغير يؤدي إلى بهو المسجد ، ولهذه الحجرة شرفة كبيرة تطل على أحد دروب مدينتنا ، وقد غطى الشرفة سياج من حديد صنع بجمال وإتقان عجيب ، أرى من خلاله المارة في الطريق ، فأتعلق عليه وأصعد إلى أعلاه ، حتى أرى ما هو أبعد مما يظهر لي في الدرب أمام شرفتنا ، وأحياناً تدخل من عقب الباب رائحة البخور ، حيث يملأ أرجاء المسجد . لم أكن أخالف لأبي أمراً ، وكنت بهي الطلعة لطيف الطبع ، فقرر أبي أن يسميني سهلاً ، ليسر عشرتي ولين طبعي .

كان أبي يذفعني للجلوس في دوائر العلم ، حتى أنتفع بما يطرح فيها ، وقد كنت متعهدا بتنظيف مصابيح المسجد ، وكان يقوم أحياناً بهذا العمل بدلا مني حتى لا يفوتني من العلم شيء ، وهكذا نشأت أجوب ساحات العلم الواسعة في مسجدي ، وبفضل دفع أبي لي للاستزادة ..

سأل سفينة :

– وهل مات أبوك يا سهل؟

أجبته :

– لا ، إنه حي يرزق ، أطال الله في عمره .

– وما الذي دعاك إذاً لترك ذلك المكان الطيب وأبيك؟

سأل سفينة ثم أضاف مبتسماً :

– نعم ، نعم ، هو البحث عن مدينة العلم .

قلت :

– هو كذلك ، فقد مررت يوماً بساحة ، وجدت بها جمعاً غفيراً من الناس وبينهم رجل جالس على صندوق خشب جميل ، يتمايل يميناً ويساراً وهو يحدثهم ، وهم ينصتون بخشوع وأدب . فاقتربت من الجمع ؛ لأسمع ما يحدّث به ذاك الرجل وأنصت . . . وإذا به يقول وقد وصلني طرف حديثه . . .

– وهنا تجدون مدينة العلم ، فإن وجدتموها فعدوا أنفسكم من السعداء . . .

ثم سلم وقام والتف حوله الناس ، وصرت أسألهم عما قاله ، فلم يجبني أحد . تبعته مسرعاً . . . ولكني كنت على بعد أحاول الوصول إليه ، ولكن دون جدوى .

قلت في نفسي : عهد علي أن أجد هذه المدينة .

حارس البحر

بعدما سمع ذلك مني سألني سفينة مقاطعاً وقد وضع يديه على ركبتيه ، مال نحوي ونظر إلي ملياً ثم قال :

- ما الذي دعاك إلى ذلك؟

قلت :

- إلى ماذا؟

أجاب :

- إلى البحث عن مدينة العلم ، فلا تقل لي يا صديقي إنك تركت مسجدك وأباك الذي رباك بفعل كلمات في ساحة سوق لم تسمع منها ما يغنيك؟!

فكرت في سؤاله واحترت قليلاً ، فقد باغتني به ، ولكني أجبته :

- لعله كان الفضول !

قال سفينة بامتعاض وضيق :

- ما أتعسك يا رجل ! أيعقل أن من تربى في ساحة العلم وبين أهل الفضل يتيماً يخرجه الفضول ! ومتى كان الفضول منبت الحكمة .

قلت :

- ظننت أنه منبتها !

أكمل سفينة :

- لا والله ! منبت العلم الصدق ومتابعة الخير ، متى وأنى وجد؟ فإن غاب عنك أو ضاع منك شيء نفيس هل تبحث عنه بهاجس من فضول؟ فإن كان ما أخرجك من دارك ومحل أمانك الفضول ، فما الذي يعيدك إليها وأنت متلصص على الأشياء غائب عن الحقائق . كان الأجدى بك أن تَصْدُقَ نفسك ، وتبقى بجوار أبيك .

سألته :

- وكيف أبحث عما لا أعرف يا سفينة؟

أجاب :

- لا يبحث المرء إلا عما يعرف ! وكيف لك أن تعرف أن

ما تبحث عنه حسن ، تتخبط في جهل من أجل الفضول ، وتبحث عن شيء لا تعرف قيمته؟ أم تعرف الحق وتستقيه ، كالعطش الذي يعرف الماء ولا يحيا بدونه .

ثم أضاف :

- اسمع يا صديقي ، أنت لن تصل إلى مدينة العلم .

فقلت له في الحال :

- ولن تجد أنت هوى !

أطرق سفينة ثم قال :

- نعم يا سهل ، أنت على حق فقد أخطأت دربي عندما تركت وجهتي ، والتفت إلى رغبتي في البقاء بالقرب من «هوى» .

الآن أريد ألاّ أريد . . .

و يفعل الله ما يريد . . . أبعدني هوى نفسي عن هوى قلبي فلم تقبل «هوى» بأقل من الكمال قدراً . . . قد أضعتها يا سهل . . . كيف السبيل إليها الآن؟

طأطأ سفينة رأسه ، ثم رفعها إلى السماء وقال :

- «عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه»

أردف وهو يمسح وجهه بكفيه وكأنه يزيح عنه الغبار :

- ما أحسن هذا الكلام لمولانا علي كرم الله وجهه ، نفعنا الله بعلمه الذي لم يتأت من فضول ولا باتباع هوى النفس .

أتعلم ما هي درة العرفان يا سهل؟

قلت :

- عرفتها الآن يا سفينة .

أضاف سفينة مبتسماً :

- نجونا جميعا اليوم .

لم يسعني إلا أن ضممت سفينة وقلت له :

- يا أخي عرفت الدرة المطلوبة لاجتياز بحر السعير .

قال سفينة :

- لا تعجل يا سهل . لم تعرف بعد اسم هذا البحر الذي به تأمن حارسه .

أخذت أردد :

- اسمه . . .؟! اسمه . . .؟! الآن تقول لا بد من معرفة اسمه . . . وهل يعقل أن يكون للبحر حارس يا أخي؟ أسألك كيف تحرس أغوار البحار أو تصان آفاق السماء؟

أجاب سفينة :

- للأشياء دلالات يا سهل فإن كنت لا ترى لهذا البحر

حارساً فاجتزه ، أنت وحدك الأسير عنده ، فإن قدرت على ذلك صدق ما قلت من أن لا حارس له .

قلت لسفينة وكأني أحادث نفسي :

- أتحسبني أضعت درتي حين وجدتها؟ أم أنك تشمت بي؟

رد سفينة وهو قائم يمشي نحوي :

- معاذ الله أن أفعل يا سهل ولكن عليك معرفة اسمه حتى تبرحه !

قلت بحسرة وأنا أنظر إلى تلاطم أمواجه الملتهبة :

- يا أخي سفينة ليتني لم أقابل تلك الفتاة !

قال :

- الفتاة لم تحبسك بل جهلك .

وجدتني أقول له في الحال :

- هو الخوف . . . الخوف . . . يحرس هذا البحر ويبقيني بجواره!

فقد عدمت الأمان منذ أن أخبرتني أميرة الظلال بما تريد . . .

سألني سفينة :

- ولم ذلك؟

أجبته وقد علا صوتي :

- لأن من يتخبطه الجهل يحسب كل صيحة عليه . الغفلة متاهة . . . متاهة .

قال سفينة بهدوئه المعهود :

- وهل تمكنت من نفسك الآن حتى أمنت شرها؟

قلت :

- لا ! بل حسبي معرفة أنها غير ذي مأمن . . . وهذا يكفيني اليوم .

التفتُّ نحو البحر ، ونظرت إليه بعين العارف لا الخائف فالآن تبينت قدره ، وبدأت تنجلي الغمة ، فبرحت مكاني تاركاً شاطئه ومتجهاً إلى أميرة الظلال حاملاً معي كل ما تريد . . . وزيادة .

سارت حسونة تغني فرحة بينما نحن في طريقنا إلى أميرة الظلال .

عندما وصلنا إلى تلك المدينة أخذنا نبحث عن مداخلها . . .

لم نجد للمدينة أبوابا !! فلا يظهر منها واحد !

قلت لسفينة :

- ما هذا الشأن الجديد!؟

وأخرجت حسونة من الكيس الذي أحملها فيه ثم سألتها :

- ما بال أبواب مدينتكم أزيلت؟ وقد كان للمدينة اثنا عشر باباً من قبل؟

سكتت حسونة ثم أنشدت :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

مدينة جازعة

قررنا البقاء عند سور المدينة حتى الصباح ؛ فقد جن الليل ونحن مازلنا متحيرين من أمر المدينة التي لا نجد لها مدخلاً وكاد سورها يصل إلى أطراف السماء . . .

بينما نحن على حالنا نام سفينة ، وقد عجبت من ذلك فقد فارق جفني النعاس حتى ظننت أنني ما عرفت النوم مذ خلقت .

أخرجت ما كان معي من رسائل لهوى ، ومداد من دخان ، وجعلت أنظر إليهما أن ينطقا بما يسعف حيرتي ، ويدخلاني إلى مدينة الأميرة التي أرادتهما .

بينما أفكر في هذا وذاك إذا بسفينة يصيح :

- لا تذهبي عني ثانية يا هوى !!

أسرعت إليه وصرت أهدئ من روعه :

- سم بالله يا أخي ! هو حلم وقد أفقت .

قال بحسرة :

- ليتني لم أفق ! كانت هوى معي تحادثني ، وأراها كما أراك وجعل ينشد وهو يهز رأسه أسى :

فــمــا غــاب عني خــيــالك لحظة

ولا زال عنهــا ، والخــيــال يزول

. . . ثم أردف :

- أو تظن يا أخي أن هوى طيف من أطياف النعيم قد أتاني ليجلل قلبي بالحب؟

سألته :

- وكيف هي؟

فلعل حالها قد أزعجه .

أجاب :

- وهل يسأل عن حال ليس بعده إلا الكمال . . .

أم يوصف حسن قد طوع أحوال الجمال . . .

ثم أضاف :

- قالت لي هوى : «يا سفينة لقد اقتربت من موطن

البلاء ، وأخشى أن تمنع الفرج . هذه المدينة التعسة ليس لعاشق أن يدخلها » .

قاطعته قائلا :

- إذاً ، هو لطف من الله أن مُنعنا أبوابها . لا تيأس .

أجاب سفينة :

- لا يا أخي هو ليس بيأس إنما شوق . . . يا سهل إن ضاق الصبر فما الحيلة؟

وأخذ يردد :

«نصب عيني خيال وجهك بالشوق واقف» .

ثم أكمل :

- ولا يزول الخيال إلا في التحقيق . . .العجز ما أنا فيه ياصاح فقد عُلِّقْتُ بشيء أنا دونه ولا سبيل لرفع الهمم ، واستشراف المنتهى . . . سأتركك حتى تتمكن من الدخول إلى المدينة فأنت طالب للمعرفة . . . أما أنا . . . فعاشق !

قلت :

- إذاً أنت أيضاً يا سفينة طالب للمعرفة .

أجاب :

- الذي أطلبه أوسع يا سهل .

فكرت كيف أنه لم يتركني ـ صديقي هذا العاشق ـ في ضائقة مذ عرفته وقلت :

- أما أنا يا سفينة فلن أتركك ؟ حق الصداقة يا أخي . . .

نظر إليّ نظرة متأمل ثم قال :

- ليس لك من الأمر شيء . فأنا ذاهب وأنت واصل . أما أنا فيدفعني الشوق والأمل ، وأما أنت فقد دنوت من المراد اذهب إلى أميرتك الحزينة التي ما كان لها أن تجزع لما أصاب أبويها ، وقد أطبق حزنها على المدينة حتى لفظت عنها العشاق ، وأوقعت بهم اليأس فجمدوا بالأسى والجحود مما قضى الله .

سألته متعجباً لقوله بأن ليس في الحب جزع :

- أو يفرح أحد بفقد الأحبة؟

أجاب :

- لا يفرح بذلك أحد وليس لأحد أن يجزع . إن كان محباً حقاً فليحسب نفسه من الغرباء لا الأشقياء ، إنما الشقي من لم يعرف الحب يا سهل .

قلت :

- أنا ذلك الرجل يا سفينة !

لم يلتفت لقولي وأردف :

- . . .أما الغريب فسيؤوب يوماً إلى من يكون موطنا له . . . هب أنك سألت أحدهم أن يطلب من الله الشفاء من حبه ، لقال لك :

«داوني بالتي كانت هي الداء » ، فبالحب يداوى الحب .

أكمل سفينة وهو يلملم متاعه :

- الحب سر لا يفتضح بالإفشاء ، وحياة قد يضيق عنها ثوب العمر .

هنا قاطعته قائلاً :

- لقد احترت في أمرك يا سفينة ! كيف يفشى سر دون أن يفتضح؟

أجاب :

- اسمع يا سهل هب أنني أطلعتك على بعض ما أعرف دون أن أفصح لك عن الجوهر ، فقد لزمت سري . وإن كان ما أعرفه أنا اليوم هو «هوى» فلعل ما يخفى عني يكون أبعد منها . . .

بل هو كذلك ، ولن أزيد . كم قلت لك يا أخي لا يبحث المرء إلا عما قد عرف . . . القلب دليل العقل إلى ما نَسي ،

والعقل ترجمان ما نعرف . أما الغفلة فمرض عضال الأجدى بنا يا أخي أن نستحي من كثرة ما لا نستحي .

بينما نحن نتحاور إذ بصوت يُسكت تحاورنا ، ويصل إلينا كنسمة هواء عليل محملة بالمسك :

«ليـهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم » .

أخذ سفينة برأسه وقال :

- سبحان من يحيط علمه بكل شيء .

سألت :

- يا سفينة ما بالك أمسكت برأسك ؟

قال :

- يا سهل هو ما كتب على المشكاة !

سألت :

- وأي مشكاة؟

خطر في نفسي : قد جن الرجل !

أجاب :

- أما تذكر ما وجدته بين صفحات «كاتب النسيان» في مسجد قرية دخان .

أجبت :

- لا !

قال :

- ما أقرب النسيان إليك ! هو ما كتبه عمي رحمه الله .

أجبت :

- نعم ! نعم ! تذكرت . . . الله ! أذهب عنا النسيان .

انطلق سفينة وهو يردد الآية دون أن يلتفت إليّ . وضعت حسونة في الكيس ، وتبعته تاركاً خلفي المدينة وأبوابها الموصدة .

سوق العقول

سرنا معاً حتى وصلنا إلى مكان يظهر من هيئته أن سوقاً قد أقيم فيه ، وإذا بنا نرى رجلاً يمشي حذونا على عجل لا يرفع رأسه وكأن همه قد جر جبينه إلى الأرض جراً .

أخرجت حسونة وقلت لها :

ـ انظري إلى هذا كأن الهم قد لزم جبهته .

وهرعت خلفه أنادي :

- يا أخي ! يا أخي !

التفت نحوي فجأة وقال بغلظة استوقفتني :

- نعم ! ما تريد؟

أجبت :

- عفا الله عنا وجملنا بالحلم والكرم ،

ثم أضفت بصوت خافت :

- إلى أين يا أخي؟

قال :

- إلى سوق العقول .

أعدت متعجباً :

- سوق العقول؟!

قال :

- نعم ! سأبيع عقلي وأشتري غيره .

ضحكت حسونة وقالت :

- سبحان الله ! أو صار للعقول سوق؟

التفت نحوها مجيباً :

- هذا كائن منذ زمن ،

ثم سأل :

- ولكن،ما أنت؟

أجابته بلطف يخامره دلال :

- أنا حسونة السلحفاة .

انفرجت أسارير وجهه العابس ، وقال مبتسماً :

ـ مرحبا بك يا حسونة .

سألت حسونة الرجل وهي تعاينني بنظرة ساخرة ، فلعلها قد ساءها تركي للمدينة ومعي ما تريد أميرتها ، واتباع سفينة إلى الكهف الذي فيه كنز عمه :

- يا هذا هل لك أن تأخذ عقلي - فقد أتعبني ، وأتعبته - إلى سوق العقول وتبدلني به عقلاً آخر؟

ولكن إياك ثم إياك أن ترجع إليّ بعقل صاحبي هذا فلم ينفعه حتى ينفعني !

تنهدت ثم أضافت :

- ولكن أين عقل سلحفاة من عقل إنسان خرج يطلب العلم ولا يدري كيف أخطأ دربه؟!

بعدها التفتت نحوي وأكملت همساً :

- أخشى يا أخي إن ذهبنا وأردت بيع عقلك يتكشف أنه لا عقل لك فظني أنك قد أضعته بين قصر الماء وبحر السعير شيئان من وهم فما قولك؟

أجبتها :

- . . . كفى !

فقد فهمت أنها أخذت تسخر مني .

انطلق الرجل حاملاً حسونة معه وصارا يتحادثان دون أن

يلتفتا إليَّ . زاد غيظي حتى كادت تسوء أخلاقي وأفقد مروءتي ، لولا أن ناداني سفينة قائلاً :

- أو لم أقل لك بألا تتبعني يا سهل . لِم خالفت رأيي؟

أجبته :

- أنت يا صديقي أعلم الناس بأني لن أتركك ! تعال لنرى ما سوق العقول هذا . . .

قال سفينة :

- هو مثل يضرب !

قلت :

- لا بل هاهو ماثل أمامنا . . .

عندما وصلنا إلى سوق العقول وجدنا جماعة من الناس يروحون ويجيئون فجلسنا على حافة الطريق ننتظر شيخ السوق . وحين وصل بدأ كل بطرح عقله للبيع وقد كنت من جملة من فعل ذلك ، ظناً مني أنني سآتي بعقل يكون لي عوناً فيما أريد .

تفحصت العقول بدقة ، وأخيراً اشترى كل منا عقلاً إلا سفينة .

تفرق الجمع ونادى الشيخ بأن السوق سيقام بعد عام في

المكان والزمان نفسه . عدنا جميعاً لنجد أن كلاً منا قد اشترى عقله لم يعجبه غيره . ثم نظرت حولي إلى حال من كان معي من الناس لأجد من يضحك هازئاً من نفسه أخذ يقلب عقله ، وآخر غشيته كآبة وحيرة يردد «ما العمل الآن !» ومنهم مبتسماً يضرب كفا بكف . . .

انفض السوق وسرنا في بيداء وقد غطى السماء ظلال وسحب يلعب بداخلها البرق والرعد ، صار المطر ينزل علينا بلين وخفة . وسفينة غير مبال فظننته لم يشعر بشيء اقتربت منه وسألته :

أما تسمع السماء؟

ثم أضفت مازحاً :

- أم شغلتك «هوى» فلا تبالي بقبلات المزن؟!

نظر إليّ وابتسم ثم أجاب :

- الحمد لله! هذه رحمة من ربي قد أغفلني عنها همي !

قلت :

- أي هم هذا الذي يخفي النعم؟ أتفكر في هوى؟

وقبل أن يجيب راعنا منظر رجل أشعث رث الثياب يهرول ينطلق هنا وهناك ، يلوح بكلتا يديه وكأنه يحاول إمساك

الفضاء ، خلناه مجنونا . أسرعنا إليه فوجدناه ينظر إلينا بعينين يملأهما الخوف ، ويغشاهما الفزع . . . سألناه مشفقين عليه من كرب حاله :

- ما الذي روعك يا رجل؟

أجاب :

- دعوني . . . دعوني ألحق أنفاسي . . . أنفاس أمسي والسنين . . . دعوني ألحق أنفاسي الذاهبة حتى ترجع إليّ فأملأها بما يرضي الله . . .

حاولنا اللحاق به أنا وسفينة فلم نقدر لسرعة ركضه وغاب عنا . . .

أوصلنا هذا الرجل إلى مكان مزعج ، صاخب ، أغبر ، حار . . .

قلت لحسونة :

- ما تظنين يكون هذا المكان؟

أجابت في الحال :

- إنه سيء لا تدخله .

قلت :

- بل أنا داخل !

حادي الأرواح

ونزلت إليه يتبعني سفينة . صرنا بين أناس مشغولين كان جل همهم كما يبدو البيع والشراء . . . كل ينادي بما عنده ليبيع وكل يعرض . . . يتزاحمون ويتدافعون ، وقد امتعضت وجوههم ، وتنافرت نفوسهم .

وجدت سفينة يتحدث ، وكأنه يناجي نفسه قائلاً :

- ما أقبح المكان؟

التفت أحدهم نحوه و قال بحدة وغلظة :

- ما بالك يا هذا تنعت الأشياء بغير ما هي عليه؟ أما ترى ما نحن فيه من خير؟

لم يجبه سفينة . . .

سألت سفينة :

- ترى ما يبيع هؤلاء؟

لم يجبني ، وإذا برجل يرفع عقيرته قائلاً :

- أبيعها بمال !

دفعه آخر :

- أما أنا فبنفس ومال . . .

علا صوت بين الأصوات يقول بتلهف :

- بل بالنفس ، والمال ، والعرض .

سمعت آخر يقول :

- من يأخذها مني بالعفة والكرامة؟

. . . ثم يغالي :

- وبالمروءة؟

وهكذا . . .ذهلت لما سمعت فإذا بحسونة تقول :

- ألم أقل لك إنه مكان سيء .

قلت :

- مهلاً حسونة حتى نعرف ما الذي يباع .

بينما أنظر إلى تزاحم الناس ، وتكالبهم على البيع إذا بمناد واقف على منبر قد اعتلاه أهل بصوت طغى على كل الأصوات . . . نادى :

- هنا تباع جنة عرضها السموات والأرض .

عندما سمعنا هذا جفلنا من المكان لا نلوي على شيء ، ونحن نستغفر ونقول :

- اللهم عافنا . . . اللهم عافنا . . .اللهم سلم سلم . . . فقد حسبنا القيامة تقوم علينا ونحن في هذا المكان الدنس .

بعدها سرنا في صمت وكأن على رؤوسنا الطير فقد اشمأزت نفوسنا مما كان عليه هذا السوق وهؤلاء القوم .

دخل الليل فجلسنا نستريح ، وأوقد سفينة ناراً فقد كان الليل بارداً . التففنا من حول النار نطلب الدفء قلت :

- ليتني أنسى ما رأيت أو أزلته من فكري .

قالت حسونة :

- الأفضل ألا تنسى . ألم أقل لك بألاّ تدخل إلى ذلك المكان .

أجبتها :

- ومن قال لك يا حسونة إنني صرت رهنا برأي سلحفاة؟!

أسكتنا سفينة الذي لم يزعجه ما رأينا في سوق المتاهة بقدر ما أزعجني . فكأن شيئاً من ذلك المكان قد علق بي فأردت أن أنفضه عن نفسي ، أما سفينة ، ساءه هنيهة ثم

سلاه .

جنبت الفكر فيما رأيت من أمر ذلك السوق النحس ، وجعلت أتنعم صفاء ليلتنا هذه ، فإذا بالنجوم قد دنا نورها منا ينادمنا ضياؤها ، زال عني البرد وانفرج ما كان في نفسي من ضيق . . . اضطجعت ونظرت إلى السماء متأملاً ما فيها من أنوار ، ومتفحصاً حركات النجوم بها .

قلت :

- يا حسونة ما أعجب السماء ! في النهار شمسها تظهر لنا ما على الأرض ، فنطلق أبصارنا لتسرح فوق البسيطة ونتعرف على ما يبتهج عليها ، وما تخرج الأرض لنا من نعم ، أما في الليل فنرفع إليها أبصارنا لتهيم متأملة ما يدور فيها من أنواء وأنوار ويسحر مخيلتنا ما يحلق بها من عجائب وضاءة وأسرار .

قالت حسونة :

- حديث السماء ذو شجون . . .

ثم أضافت :

- أما تفكر يا أخي في العودة إلى مدينة أميرة الظلال بعدما حزت على ما تريد سيدتي؟

أجبت :

- قد جعل الله لكل شيء قدراً . هذا والله ما حاك في نفسك يا حسونة ، فقد عرفت تغيرك عليَّ مذ تركنا المدينة .

قالت حسونة :

- معذرة يا أخي فكما يقال صاحب الحاجة أرعن .

ثم التفتُّ نحو سفينة وسألته :

- أراك ساكناً أما تجاذبنا الحديث . . .

أجاب :

ولربما خـــدعــتك صــفــحــة هادئ

مني وفي الأحـــشـــاء عـــصف رياح

قلت ضاحكاً :

- يا سفينة هذا الليل لا يطلب العواصف بل رَوح ورخاء .

أشار إلينا سفينة بأن نسكت ثم قال :

- أتسمعون هذا الغناء؟

سألت :

- غناء من؟ هوى؟

قام سفينة وهو يقول :

- ما أجمل ما ينشد . . .

أخذ الغناء يقترب منا فإذا برجل يحدو بصوت لم أسمع له مثيلاً في حياتي ، فكأن كل كلمة نطقها قطرة من دموع الرحمة ، وكأن الليل كله مُلئ بأنفاس الملائكة .

قال سفينة :

- هو غناء حادي .

ومما ينشد وصلنا :

فحي على جنات عدن فإنها
منازلنا الأولى وفيها المخيم
وحي على السوق الذي فيه يلتقي
المحبون ذاك السوق للقوم يعلم
فما شئت خذ منه بلا ثمن له
فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
فيا بائعا هذا ببخس معجل
كأنك لا تدري ، ألا سوف تعلم

أردف سفينة :

- كأنه حادي الأرواح هيا بنا نتبعه . . .

مضينا إلى حيث الرجل ، وجدناه يمشي وحيداً متكئاً على عصاً بيضاء ، قد لبس ثوباً وجبة زرقاء أسدلت عليه لا تتحرك ،

كأنها نحتت من صخر. كان فارع الطول، أنيق الممشى، يرفع صوته بالغناء من غير عناء، ودون أن تتبدل ملامح وجهه، به هيبة وخشوع. قد ولى عنه الشباب دون أن يكون له به حاجة، فلم يأخذ منه الزمان بل أعطاه... عندما اقتربنا منه أحس بنا فالتفت وحيانا:

- مرحباً، هل أضعتم الطريق؟

قلنا:

- لا بل سمعناك فاتبعناك...

سألنا الشيخ:

- أوكل ما يسمع يتبع؟

أجاب سفينة:

- والله ما سمعنا بمثل ما تنشد حُسناً...

ابتسم الرجل قائلاً:

- هذا ليس مساركم عودوا إلى وجهتكم.

قال سفينة:

- إنك على حق.

سلم على الرجل ثم ولى.

أمسك الرجل بيدي وهو يرنو إليَّ بحنو وإشفاق وقال:

ـ قد ماتت «هوى» .

هنا استـغلق علي الكلام ، فكأنما السـمـاء أطبـقت على رأسي .

مضى وتركني .

نظرت إلى سـفـينة وهو ينأى لا أبرح مكاني ، فـمـا الذي أفعله بعلم مثل هذا؟ قد حُمِّلت ما لا أحتمل .

ناداني سفينة :

- يا سهل أما سمعت الرجل تعال !

قلت في نفسي : البلاء أنني قد سمعت الرجل . . .

يا أخي لو تدري !

كنز من رماد

لحقت بصديقي . . . كلما نظر إليّ سفينة طأطأت رأسي ، فوالله لو قيل لي : افده . . . لفديته . . .

فكرت في أعز ما لدي فلم أجد ما يساوي كسر قلب صاحبي هذا لأفتديه به ، قلت : ليتني الذي أحببت هوى بدلاً منه ، ليتني أحببتها . . . ومت .

جعلت أقيس عمري بعمره ؛ لأجد بماذا يمكنني أن أفديه ثم أيقنت أنني لو لملمت أحسن ما كان في حياتي لم يساو لحظة صفاء قضاها سفينة مع هوى .

فكرت : ما أضيق عمري ، وأجدب قلبي . لا سلوى لي ولا عزاء لسفينة . . .

بينما تدور في رأسي هذه الأفكار إذا بسفينة يسألني :

- أتريد تمرة؟

جعلت أبكي ما يعقل ما أنا فيه من حزن ، ارتاع صاحبي له وسأل برفق :

- ما بالك يا سهل؟! الأمر أكبر من تمرة ! أتذكرت أهلك أم مللت سفرك؟ أم تخفي عليّ خطبا عصيباً؟

هنا بدأت أنتحب وأقول :

- هات التمرة ، هاتها . . .

وأردد . . . «الصمت إن ضاق الكلام أوسع »

قال سفينة :

- هون عليك يا سهل !

فما أن هدأت نفسي قليلاً حتى قال سفينة :

- دعني أحك لك حقيقة أمر الرسالة التي وقعت بين يديك ، والتي بعثها عمي إلى ولده علني أروح عنك ، وتسلى مما أغم خاطرك .

جعلت أشير له بأن «لا» دون أن أقدر على الكلام .

قال سفينة :

- لا بل لك أن تعرف .

قلت له :

- يكفيني ما أعرف يا سفينة .

أكمل :

- لتعرف إلى ماذا صار كنز عمي .

هززت رأسي وأنا أنظر إليه متجلداً ثم سألت :

- إلى ماذا؟

قال بانشراح :

- إلى رماد !

أعدت :

- إلى رماد؟! نحن الآن سائرون إلى رماد ، هذا والله أمر عجيب !

أجاب سفينة :

- سُرانا يا سهل ليس لرماد ، وما أبعده من رماد . . . العجب ما لم تعرفه بعد !

قلت :

- ارفق بي يا أخي ! قد تعب صاحبك . . .

قال :

- يا سهل بعدما تزوج عمي من سلمى زاد حبه لها ، وشغفه بها ، أما سلمى فيبدو أنها لم تكن تراه كما يراها . مرت

الأيام وسئمت الصبية حياتها مع عجوز محب ، فجاءتني علها تتشفى من هذا الذي يحبها وقالت :

«يا سفينة لم يعرف قلبي غيرك وإن طلبت مني عمري لافتديتك به فاطلب ما تشاء .»

عندما سمعت منها ذلك سكتُ .

قاطعت صاحبي قائلا :

– يا سفينة هذا ليس ديدنك وأنت صاحب مروءة !

أجاب سفينة مبتسما :

– نعم ! حسبك من الشر سماعه ، لم يكن ذلك سكوت الرضى ، وإنما حيلة المتقي ، فقد وليت وجهي عنها ولم ألفظ بشيء تحسباً لشرها ، وحتى لا تعرف مدى غيظي فتسرع إلى اتهامي بما يشين . . . صارت تبعث إليَّ برسائل لعل قلبي يرتد إلى سالف عهده بها .

قلت :

– هذا والله ما لا يحتمل .

أكمل سفينة :

– الأمر يحدث بعده الأمر ، جعلت تهددني بأنها سوف تخبر عمي أنني هممت بها سوءاً . عندما بلغ السيل الزبى ،

ذهبت إلى عـمي لعل مـبـادرتي بالصـدق تشـفع لي عنده .
دخلت عليه فقلت له :

«يا عم أنا منك وأنت سيدي ووالدي بعد أبي»

قاطعت سفينة متحمساً :

- نِعْمَ ما قلت يا أخي !

تابع سفينة :

- أمـا عـمي غـفـر الله له فـأجـابني أن ليس لك عندي شيء .

ظناً منه أنني أتيته طامعاً .

قلت :

- والله بئس الرجل هو أوما تمهل بسوء ظنه .

- أجبت عمي غاضباً فقد آلمني طول ظلمه لي :

«لا بل لك عندي شيء !»

ضحك عمي وقال :

«وما عسى يكون عند مثلك لمثلي !»

تملكت نفـسي وأعـدت عليـه أنه أبي بعـد أبي وأن مـا يسوءه يسوؤني وأنني لم يكن في وسعي أن أغض الطرف عمن استـعـدت لنض ثوب العـفـة في داره ، قلت :«يا عم هذا سر

بيني وبينك ، أكـاد لا أحـادث به نفـسي . . .» وهكذا . . .
استشاط غضباً ورماني بوسادة كان متكئاً عليها وقال :
«كذبت يا جاحد يا خائناً لعهد الرحم بيننا . والله ما تريد إلا فساداً !»

وأخذ يبحث عن سيفه ليقتلني فلا يجده .

خرجت تاركاً إياه فقابلتني سلمى تضحك وتقول :

«سترى ما أنا فاعلة بك يا جاحد وبعمك الخرف »

أخرجني عمي من بين أهلي طريداً وصار الناس يسبونني ويرجمونني بالحجارة والتهم يقولون بأنني راودتها عن نفسها .

وأنا صامت لا أقدر أن أفصح عما عندي من علم ، فيفتضح أمرها ، ويلصق الشك في نسب أبناء عمي الصغار . كان جل همي ستر الأمر ، وهكذا أصبح المظلوم هو الجاني . لقبت بالجاحد منذ ذلك اليوم .

قلت :

– الجاحد من قال إنك جاحد . أما تعرف يا سفينة أن الناس لا يحتملون أن تبدى لهم مساوئهم وإن عرفوها . لا تكمل يا سفينة فقد أتعبني طول عذابك . . .

لم يأبه بطلبي وتابع القصة :

- . . . يقال إنه ارتاب منها بعد زمن فقام بجمع كل ما كان لديه من مال وجوهر ، وكل ما قد أخذه من أمي وأبي ، وخبأه في غار لا يعرف أحد مكانه . يقولون إنها أخذت تجرعه السم حتى مات . والله أعلم ، فقد يكون كره من تحب لك أنكى من السم . كتب إلى ابنه الأكبر بمكان الكنز في رسالة تسلمها بعد وفاته ، وقد وقع بين يديك يا سهل ما أبقاه الزمان من كلماته . ولم تعلم سلمى بأمر هذه الرسالة ، فقد أغفلها عن تدابير جمع المال وتخبئته . أخذ الولد ما ترك له ، ولم تحصل سلمى إلا على جرمها .

العجب ما فعله ابن عمي فقد كتب إليّ أن أعود وأظهر أمر صدقي ، فأفشى السر الذي طلب أبوه أن يخفيه ثم قال :

- هذا المال مالك يا سفينة ، وقد كرهت أن ألقى ربي بإرث الجحود ، فخذ حقك المعطل . . .

ذهبنا إلى الغار الذي به الكنز ، فإذا بحريق قد شب في العتاد والمتاع أحرقه بأكمله . لم يُبق إلا رماداً . . .

قلت لابن عمي : حمدا لله أن فعلت ما فعلت قبل هذا ، فلتكن في صحيفتك ، أما أنا فكنزي أنت . . . ولا أبالي بكنوز

الرماد .

قام سفينة معاوداً السير وقال :

- يا سهل يبدو أنك تعجلت وخاب ظنك ، فنحن لم نخرج لجمع كنوز الرماد . . . قد أخبرتك بقصتي هذه حتى تعرفها ، ذلك حق الصداقة عليَّ ، قبل أن نفترق .

قلت :

- من قال لك إننا سنفترق؟

ابتسم سفينة وقال :

- نفترق كي نلتقي إن شاء الله . . .

قالها وقد اغرورقت عيناه .

قمت معه نسير تتهادى بنا الموامي بين كثبان الرمال نمشي في صمت ، حتى وصلنا إلى مكان مرتفع كساه نور القمر ، وطيبه نسيم السحر ظهر من فوقه قبر ! أشار إليَّ سفينة أن أقف ثم قال دون أن يلتفت إليَّ :

- هنا قبر هوى . . . لو تركتني وحيداً . . .

همست :

- إن لله وإنا إليه راجعون .

ابتعدت تاركاً له كما أراد لا أملك إلا الذهاب ، وقد عقل

الحزن لساني لا أقدر على شيء .

مشى سفينة وعند القبر جثا على ركبتيه وصار يبكي ويردد :

الشاهد هو الحاكم الشاهد هو الحاكم . . .

ملأ بكاؤه الفضاء فلم أعد أميز بين صوت الهواء ، وأنين صديقي ، وغشاهما سواد الليل فلم أعد أميز بين القبر والرجل . . .

الخلاص

أحسست بضيق شديد وأنا عائد إلى المدينة فلم أعد أبالي بخلاص نفسي من الموت الذي حذرتني منه أميرة الظلال ، تغير الموت فبدا غير ما أعرفه .

وصلت المدينة ، ودخلت قصرها لم ألتفت إلى ما في المدينة ولا إلى أهلها . عندما دخلت إلى بهوها الفارغ وجدتها على حالها . . . وقفت محاذياً بساطها وقلت :

- السلام على سيدتي . قد أتيتك بالمراد .

أجابت :

- أنقذتني يا سهل من الموت المحقق . . .

قلت :

- بل نفسي . سلمت حياة مولاتي .

قالت :

- لا يا سهل ذاك ظنك . لا ضير . فأنت لم تسمع ما قلته بل أنصت إلى خوفك وروّعك ما سمعت ثم تعجلت . . .

سألتها متعجباً :

- لم يكن خروجي لخلاص نفسي إذاً؟ ليتني فعلت ما فعلت لأجلك . لكان ذلك من كمال المروءة .

نظرت إليّ وقالت :

- خرجت يا سهل من أجلنا نحن الاثنين . هات ما عندك .

أعطيتها ما كان معي وقصصت عليها ما مر بي . . .

ناولتني رسائل الطيب وقالت :

- هذا لسفينة . . .

ثم أردفت :

- هذه الرسائل لم يطلبها منك صديقك الفاضل ، وهي أنفاس «هوى» التي غابت عن دنياه زهد فيها من أجلك . . . ردها إليه .

ثم ناولتني المداد وأكملت :

- وهذا لك ، لتكتب به ما يرى وما لا يرى ثم أكملت

بصوت رنيم :

ومــــا من كــــاتب إلا ســـيــــفنى
ويبـــقى الدهر مـــا كـــتـــبت يداه
فـــلا تكتب بخطك غـــيـــر شيء
يســـرك في القـــيـــامـــة أن تراه

أرخت رأسـهـا ثم رفـعـتـهـا ، فـوجـدت أن دمـعـتـهـا قـد سقطت . . .

خـرجت من عندها ، وقـد أيقنت أن القلب إن صـدق هو أوسع مدائن العلم ، وأن حياته لا تكون إلا بتواتر الرحمات .

كتبتها الراجية رحمة ربها مها

أذهب الله عنها الغفلة

والأسى

.. وهي قطعة من ذلك الديباج السحري الذي قدت منه "توبة وسليّى" ولست أحسب إلا أننا نفيء، بهذين العملين الرائعين، إلى أريكة وارفة الظلال، ستكون مستزادا لطلاب الأدب الحق الذي يليق بأمتنا...

(إبراهيم العجلوني)

سفينة وأميرة الظلال ترسيخ للمنحى الجديد الذي اختطته الكاتبة في "توبة وسُليّى" من تكسير للمألوف على مستوى الرؤية والطرح والبناء والسرد.

(أروى عبيدات)

...فتكون العوالم العجائبية والغرائبية محفزة لتجسيد مختلف الأبعاد والأفكار التي تتوارى خلف حبكة النص، ومحققة بذلك أيضا متعة سردية خاصة وفرت لها الكاتبة كل مقومات الانسجام والاتساق سواء على مستوى السرد أو الشخصيات أو اللغة أو الأسلوب. وينجم عن كل ذلك نص كثيف وموح وعميق الدلالة....

(سعيد يقطين)

تضرب هذه الرواية الممتعة، بجذورها الغائرة، في قلب الأسطورة العربية. تستصفي حكمتها البليغة وتستقطر نورها الرائق لتقدم أمثولاتها الرمزية للحياة. بنماذجها الغنية وظواهرها الملغزة، موظفة أساليب وتقنيات فنية جديدة.. مما يجعلها اضافة نوعية مدهشة للسرد العربي الحديث تنبع من تراثه الخصب لتكسبه نضرة الروح المتجدد الأصيل.

(صلاح فضل)

...أما الحدث في هذه الرواية فهو مدهش وخرافي الملامح، يتخطى الأحاسيس العابرة والشاردة ويتقفى أثر نبوءة تعيد ابتكار كينونات هدها العشق والشوق .ولذلك تعثر الظلال هنا على ظلها وتؤجل النسيان، ولأنها لا تحب العبث بالكلمات، فهي تدعونا لقراءة رواية تهفهفها سكينة مؤقته وربما مؤجلة ...

(عبدالفتاح الحجمري)

...إن هذه القصة مشبعة بالخيال المنطلق إلى أبعد الحدود...وهي تنبئ بموهبة قصصية متميزة وفيها دليل على ثقافة واسعة وصور أسطورية معبرة.

...فيها الكثير من البساطة والعفوية، وربما كان هذا هو السر في جاذبيتها، فه
والحوادث والأحلام وتستنطق فيها الطبيعة والكائنات...لذلك فإن هذه القصة ه
التي تتجاوز الواقع وتنشد الكمال .

ISBN 9953-36-073-1

منشورات 2003
لا لا لا للعدوان على العراق
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨